الفصل الثاني

التوجه صوب الشمال

١- أعالي وادي حنيفة

٢- المحمل الغربي

٣- السر

٤- المذنب

الفصل الثاني

الاتجاه صوب الشمال

١ـ أعالي وادي حنيفة[١]

لم ينقشع الظلام عندما حاول منور أن يوقظني بلطف من سُباتي وهو يناديني بنداء غريب: «يا مصطفى ... يا مصطفى»، لأنه في الجزيرة العربية، مثلما في بلاد الشرق عموماً، يعتبر من غير اللائق أن توقظ النائم بطريقة فظة، وكانت محاولات منور قد دعمتها النداءات العالية للمؤذن المجاور لنا في الساعات الباكرة من صباح الخامس من أغسطس، أي اليوم المحدد لبدء الحملة العسكرية على حائل. كانت الساعة قد بلغت بالكاد الرابعة والنصف صباحاً، ولكن ما إن بدأت لتوي في احتساء فنجان الشاي الصباحي إلا وجاءتني الأخبار أن ابن سعود قد انطلق، ولم أضيّع الوقت سدى بل أخذت في ارتداء ملابسي والانتهاء من تعبئة متاعي على ضوء الفانوس. وما هي إلا ساعة واحدة وكنت أقول وداعاً نهائياً للخادم المخلص محمد ابن مسلم، قبل أن أركب في ساحة القصر.

وكان قد وضع تحت تصرفي ذلول عمانية[٢] رائعة ذات خطى سريعة على

---

(١) يبلغ طول وادي حنيفة نحو (٢٠٠كم)، يتجه بشكل عام من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي فيما بين حافة جبال طريق الوسطى في الغرب، وهضبة العرمة، وجبال الهيت في الشرق. للمزيد، انظر: عبدالرحمن صادق الشريف. جغرافية، المملكة العربية السعودية (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) جـ١، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) هناك لجام للإبل في الجزيرة العربية يسمى (خطمه) ويتكون من حبل واحد من الصوف يربط على حلقة بواسطة سلسلة قصيرة في رباط الرأس الذي يتكون من حزام من الجلد حول أنف الجمل ويثبت في مكانه بشريط من الجلد يمر فوق وخلف الأذنين. وحول الرقبة يُربط عادة شريط من الحبل يسمى عقال أو رسن وهو الذي يُستخدم لربط واحدة من أرجل الجمل عند التوقف للمبيت. (فيلبي). للمزيد من التفصيلات عن هذا اللجام، انظر جواد علي، المفصل.

الرغم من أنها كانت صعبة وحروناً[١] قليلاً وخاصة بالقرب من المباني، وكان رشيد أخو حسنة قد حل الآن محل إبراهيم كدليل، وهو صديق وحكيم. ومجموعتي في هذه المرة قد اكتملت بإبراهيم الجنيفي، ومنور وشاب يدعى حميد وهو بن عم رشيد، وقائدين للجملين اللذين يحملان الأمتعة. وقبل أن ينبلج الصباح كان عندي سبب للشكوى من عدم وجود دليل يملك معرفة بالمناطق المحلية، وقد تم تصحيح هذا النقص فوراً بانتداب مترك بن عمارة الصديق القديم، إلى مجموعتي[٢].

وهكذا غادرت الرياض، لآخر مرة كما ثبت لاحقاً، بعد إقامة دامت (٤٢) يوماً منذ عودتي من الجنوب. وكم كنت سعيداً حقاً أن أنفض غبار العاصمة الوهابية عن أقدامي، وقد سلك ابن سعود الطريق المباشر إلى الدرعية، ولكني كنت ميالاً إلى استكشاف وادي حنيفة بطوله كله[٣]. وعند الخروج من المدينة ببوابة الظهيرة سارت مجموعتي الصغيرة ملتزمة الحافة الخارجية لبساتين النخيل في الاتجاه الجنوبي إلى أن وصلنا إلى الباطن بعد ساعة من المسير.

وعندما سرنا في قاع الوادي الملتوي لميل أو أكثر عكس اتجاه المجرى باتجاه الشمال الغربي، كانت بساتين النخيل الوفيرة في هذه الواحة ـ الضاحية ـ على كلا الجانبين، وبين الفينة والأخرى كنا نمر بجوار الخيام السوداء للبدو، التي كانت مرتبة واحدة بعد الأخرى أو في مجموعات صغيرة وسط القاع الرملي الجارف. ومعظم هؤلاء البدو من قبيلتي السهول وقحطان[٤]، وكانت الماعز كما لاحظت

(١) حروناً: أي عنيدة أحياناً عندما تدفع للنهوض أو المشي. (ابن جريس).

(٢) كان فيلبي في جميع رحلاته يحرص على أن تكون معه فرقة متكاملة أثناء الرحلة، من حيث المعاونين والمرشدين وغيرهم. وهذا من الأسباب التي جعلته ينجح في كثير من رحلاته. كما أن مساعدة الملك عبدالعزيز في جميع رحلاته جعلته يخلف لنا كما هائلاً من المعلومات القيمة التي يصعب أن نجدها في أي مصدر آخر. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن وادي حنيفة جغرافياً وتاريخياً، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٣٠ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلتي الهول وقحطان، انظر: الحقيل، كنز، ص ١١٩، ٢٣٣. (ابن جريس).

مربوطة بحبال طويلة تسمح لها بالرعي وهي مربوطة من الرقبة على كتل خشبية أو صخور كبيرة، بينما الصغار منها تلعب في مرح مع أطفال البدو العراة، وتندفع نحوهم في غضب جميل، وتنطحهم وتقفز هنا وهناك في سعادة وسرور. وعندما مررنا باحدى مجموعات البدو، كانت امرأة قد خرجت من الحدائق ومعها حزمة من نبات الفصفصة[١]، وعندما رآها الأطفال تركوا ألعابهم واندفعوا نحوها حيث جلست على الرمل تطعمهم.

وانتهى نخيل الباطن عند النقطة التي تلتقي فيها الدلتا الغنية لشعيب ميضر مع الوادي، الذي تتناثر فيه بغزارة رقع من حدائق القرع العسلي والدُخُن والقطن، والتي كان يقوم على حمايتها في عصور الاضطراب الماضية برج حراسة. وما زالت أنقاض البرج واضحة للعيان على قمة الضفة اليمنى لوادي حنيفة[٢]. من هنا يرتفع الوادي على نحوٍ يمكن إدراكه بين سلاسل التلال التي لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثين قدماً، وعرضها نحو ثلاثمائة ياردة، ويقطع التل الثالث منها مجرى جارف تنتشر فيه بغزارة هنا وهناك أيكات من أشجار الصفصاف القصيرة، وتلتقي به شعابٌ غير مهمة على كلا الجانبين.

بعد نحو ثلاثة أميال من دخولنا في الوادي صادفنا مجموعة كبيرة من البدو منهمكة في عمل قرية جديدة على موقع مهجور منذ مدة طويلة، وكان قد تحصلوا بالفعل على الماء بالحفر في بئر على عمق غير بعيد، كما تمكنوا من بناء القليل من

(١) الفصفصة: أي البرسيم، وهو من الأشجار المحببة إلى الحيوانات، كذلك بعض السكان يقتاتون به. (ابن جريس).

(٢) أبراج الحراسة الموجودة على المزارع نشاهدها منتشرة في وسط نجد، وفي الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية. كما نلاحظ في البلاد الممتدة من الطائف ومكة إلى نجران وجازان بعض الحصون القديمة التي يصل ارتفاعها إلى عشرين متراً وربما أكثر، عملت خصيصاً لحراسة المزارع من اللصوص، وأحياناً للاستخدام أثناء الحروب والصراعات القديمة. انظر: غيثان بن جريس. عسير: دراسة تاريخية ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٣٧ - ٥٨، كما انظر عدد مجلة المنهل الخاص عدد (٥٧١) جم (٦١) (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). عدد خاص عن العمارة، وبه مواضيع جيدة (ابن جريس).

المنازل[١]. كان هؤلاء من الإخوان، ولكنهم أظهروا عدم اهتمامهم بشخصي عندما أصروا على أن نؤخر سيرنا وننزل لشرب القهوة معهم، وقد اعتذرنا منهم ومضينا في سيرنا لنجد بعض الآثار القديمة من المباني الطينية وبئراً مطوية بالحجر مهجورة في خليج من الوادي، وغير بعيد عن ذلك هناك قرية ثانية من قرى الماضي المجيد. وبعد ذلك وجدنا هناك أيضاً بعض الآثار الأخرى الباقية من بيوت وآبار قريبة من سابقتها عند فم شعيب لبن الذي يختلط هنا بالوادي بعد مسافة طويلة عبر جبل طويق.

بعد ذلك مباشرة أتينا على قرية قرشية التي لا تزال مأهولة، وهي تقع على بُعد أربعة أميال تقريباً من الباطن، وتتكون من حوالي مائة من جذوع النخل في مجموعها مقسمة إلى مجموعتين قديمتين، والتي حولها قامت خيام قليلة بالية وقصر يظهر فيه بعض التميّز. حيث يبلغ إجمالي سكانها نحو خمسين شخصاً. وفي هذه البقعة كانت الضفتان على كلا الجانبين ترتفعان لحوالي (٧٠) قدماً، وكان الوادي تسده رواسب مرتفعة من الطمي والتي يشقها حوض السيل منحدراً بصورة حادة. وبعد ميلين إضافيين وصلنا إلى نقطة التقاء شعيب عُبير العريض مع الوادي، وبعد بعض التردد في أيهما كان وادي حنيفة فقد اكتشفنا أنه هو المتجه نحو الشمال تماماً إلى بساتين نخيل عرقه التي يمكن رؤيتها من بُعد. وقبل الوصول بنحو ميل أو يزيد إلى هذه الواحة الفعلية كنا قد مررنا عبر حقول الحنطة فيها التي تُقسّم إلى مساحات صغيرة مستطيلة في طمي الوادي. وتوجد هنا وهناك آبار قليلة لدى هذه الأراضي.

---

(١) وكانت من أهم مشاريع الملك عبدالعزيز هو توطين البدو في قرى وهجر مختلفة في أنحاء البلاد، للمزيد انظر: أحمد عبدالرحمن الشامخ، وعبدالإله أبو عياش. توطين البدو في المملكة العربية السعودية، (الهجر) (الكويت: جامعة الكويت) كلية الآداب والتربية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ١٢ وبما بعدها، محمد محمود السرياني. ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ)، ص ١٦ وما بعدها. (ابن جريس).

تمتد واحة عرقة من جانب الوادي إلى جانبه الآخر بعرض ربع ميل ولنحو نصف ميل عكس اتجاه التيار، ويشق حوض السيل طريقه في وسطها. وكانت الجدران الداعمة من البناء الذي يعلوه الطين تحجز مياه السيل على كلا الجانبين، بينما القرية نفسها تقع على الضفة اليمنى منها. كانت القرية قد شيّدت منذ زمن وهي بائسة المظهر، لكنها مسوّرة وبها قليل من أبراج الحراسة. وفي الوقت نفسه هناك قلة من البيوت المعزولة تقع داخل بساتين النخيل الكثيفة في الضفة اليسرى. وفي أحد هذه البيوت ـ أي بيت أمير المنطقة المحلي ـ أرخينا عنان دوابنا طلباً للماء، ولكنه ألح علينا أن نبقى معه لتناول القهوة. وقد قبلنا الدعوة واستضافنا أخو الأمير، عثمان بن عثمان، ورجل آخر طاعن في السن لم أكتشف هويته. وقد قاموا بهرس حبوب القهوة بمدق من الصخر الأسود المصقول تشبه تلك المستخدمة ـ كما قالوا ـ في حائل، في هون صلب من الرخام ذي لون شبه رمادي عرضه قدمان وارتفاعه قدم واحد تقريباً وهو مزخرف بخطوط بسيطة[١].

وقد قاموا بتمرير القهوة علينا مرتين، مع دورةٍ رحبنا بها، من التمور الطازجة من الأنواع المختلفة التي تسمى وخيني خلال ذلك، وبكل كرم أصروا علينا[٢] أن نقضي معهم الليل ونتناول طعام الفطور معهم في الغد، وعندما لم يوفقوا في ذلك، قاموا بسرعة بتدوير البخور المعتاد علينا لنحث الخطى في طريقنا.

ربما يكون سكان عرقة حوالي (٥٠٠) نسمة، وهم يزعمون أنهم ينحدرون من

(١) الحديث عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في نجد وغيرها من أجزاء المملكة جديرة بالدراسات العلمية الأكاديمية الرصينة المستندة على مصادر ومراجع موثوقة، وإذا لم تبادر المؤسسات العلمية ومراكز البحوث في الجامعات وغيرها بمثل هذا الجانب، فسوف يضيع الشيء الكثير من الأفكار والموضوعات الحضارية المختلفة (ابن جريس).

(٢) عادة تبخير الضيف بأنواع البخور الجيدة موجودة عند العرب منذ القدم وما زالت تمارس في المجتمع السعودي حتى اليوم. (ابن جريس).

بني هلال[١]، على الرغم من أنه من الشائع أنه يوجد فيهم مزيج كبير من عنزة. وكان مجلس القهوة غير كبير، ولكنه على غير العادة باردٌ وذو تهوية وسقفه مدعوم بعمود صخري في الوسط، ومليّس بالجبس، ويعلوه تاجٌ بسيط الشكل. وقد أبدى مضيفونا شيئاً قليلاً من الفضول بالنسبة يمكن لي كوني أكون، غريباً حسبما رأوني، بيد أن الجنيفي لم يتلطف بمنحهم أي معلومات أكثر من أنني كنت ضيفاً موقراً على ابن سعود، في حين لم يُثر فيهم ما قلته من أنني قد أتيت من بلد على مسافة سنة بحساب السفر بالإبل أي دهشة على الإطلاق.

تقع آثار الدرعية على مسافة ثلاثة أميال عكس اتجاه التيار من عرقة في اتجاه الشمال الغربي. بين هاتين النقطتين يتراوح عرض الوادي بين مئتين وخمسمائة ياردة بين جانبين بارزين يرتفعان من سبعين إلى مائة قدم. وهناك ثلاث قنوات سيول غير مهمة يعترضها الوادي من الضفة اليسرى، وقبل الوصول إلى الدرعية بقليل يمر المرء على بستان النخيل الصغير وقصر مختررة. هنا وقفنا على مشهد لآثار العاصمة الوهابية القديمة[٢] بأبراجها حيث تباطأنا في سيرنا لنتمتع بالمشهد. وسرنا على طول القناة بين جدرانها الواقية حتى البقعة التي كنا قد أقمنا فيها مخيماً للمبيت في ديسمبر الماضي. لقد كان مشهداً ساراً ومليئاً ذاك الذي يمتد الآن أمام أعيننا، فموكب ابن سعود يتوزع أمامنا في أرجاء حوض السيل وبساتين النخيل المجاورة. وكنت على الفور قد دُعيت للتقدم إلى بيت الأمير المحلي، الذي دعا

(١) قبيلة شبه جغرافية يستخدم اسمها أحياناً للإشارة إلى القديم. (فيلبي)، للمزيد عن قبيلة بني هلال، انظر: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وعبدالحليم عويس. بنو هلال: أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب. (الرياض: نادي الرياض الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن عاصمة الدولة السعودية الأولى الدرعية، وعن تاريخ الدولة بشكل عام، انظر: وليام فيسي، الرياض، ص ١٣٩ - ١٦١، حمد الجاسر، الرياض، ص ٧١ - ٧٣) إبراهيم بن صالح عيسى. تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم (من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠هـ) (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ص ٩٧ وما بعدها. عبدالفتاح أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

ابن سعود وحاشيته للغداء؛ كان هناك جمع غفير للتشرف بهذه المناسبة وكثير من الأحاديث تلتها صلاة العصر.

ثم جاء الغداء، مائدة سخية، أمر ابن سعود عند نهايتها، ونادراً ما كان يحدث ذلك، ببدء المسير. وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً كان الموكب كله يتحرك على الطريق، بيد أن الجزء الأول من المسير في ذلك العصر عقب وجبة هائلة لم يكن مريحاً على الإطلاق. وكنت سعيداً لأن الأميال الخمسة الأولى من تقدمنا في السير حتى وصولنا إلى الملقى كان في أرض قد اجتزتها فعلاً من قبل.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً عندما وصلنا إلى الملقى حيث تجاوزنا أبعد نقطة من الوادي وصلت إليها سابقاً. وعلى الرغم من ذلك لم يُظهر ابن سعود أي علامة على التوقف. وواصلنا السير في الوادي الذي بلغ عرضه الآن نصف ميل بين منحدرات ارتفاعها نحو (١٠٠) قدم. وبعد ملقة بقليل تجاوزنا أنقاض مزرعة مهجورة من حقول الحنطة الشاسعة، ولكن بعد ساعة من ذلك أصبح الظلام دامساً حتى إنني لم أستطع أن أرى معالم الوادي أو بوصلتي. وقد قدرّت بالتقريب اتجاهنا نحو الشمال الغربي بواسطة النجم القطبي بينما كنا نتخبط في الظلام، ولم نصل قرية الجبيلة إلا الساعة التاسعة ليلاً تقريباً. ولحسن الحظ وجدنا أن أن ابن سعود قد توقف للمبيت، لقد قطعنا حوالي ثمانية وعشرين ميلاً من السير، والتزمنا فيها وادي حنيفة لمسافة (٢٥) ميلاً[1]. كنا قد تناولنا عشاءنا من قبل ـ طبقاً لرأيهم ـ ولكني كنت مرة أخرى جائعاً تماماً بعد المسير، وعلى الرغم من ذلك رقدت على الرمل وسرعان ما أصبحت أغط في نوم عميق.

(١) لمزيد عن وادي حنيفة وفروعه وسكانه، انظر، عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

في الجبيلة، إحدى أقدم قرى بني حنيفة، الذين أعطوا اسمهم للوادي كله، وادي حنيفة، وهو حتى هنا قناة ضحلة واسعة بين تلال جرداء، يتقلص مجراه ليغرق بصورة حادة في القناة العميقة التي ذكرتها آنفاً؛ ولذلك تعتبر القرية هي المفتاح لموقع إستراتيجي مهم بين قرى العارض ومرتفعات المحمل وطويق. وهنا تقول الروايات إن واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي القديم قد وقعت، عندما واجه صحابة الرسول ﷺ[١] وهم حفنة من المؤمنين الصادقين، قوات مسيلمة[٢]، نبي حريملاء الكذاب[٣]. ولم يتحقق انتصار الإيمان الصادق إلا بفقد أرواح نحو سبعين من الصحابة، وهم المصدر الوحيد الأمين على تعاليم وأحاديث سيدهم[٤]. ومن المعتقد به في نجد أن هذه الخسارة الفادحة في الأرواح كانت هي السبب المباشر في البدء فوراً في كتابة نص القرآن، الذي أملته على النُسّاخ شفاه الباقين من العصبة الصغيرة الذين أخذوا آياته من شفاه الرسول ﷺ نفسه[٥].

قد يكون الأمر كذلك، فقبور الصحابة الذين سقطوا في تلك المعركة لا تزال واضحة حتى هذا اليوم بالقرب من القرية في طبقات عميقة من طمي النهر، الذي كان في وقت زيارتي قد جرفه السيل جزئياً، ونتج عن ذلك أن جوانب الكثير من المقابر المتفرقة قد أصبح لها فوهات مفتوحة على الوادي. ولم يكن سطح طبقات

---

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن حروب مسيلمة الكذاب، الذي ارتد في اليمامة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك (بيرت: دار سويدان، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) جـ٣، ص ٢٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) لقد أخطأ فيلبي في تسمية مسيلمة الكذاب بـ (نبي) حريملاء، وإنما هو الذي ادعى النبوة في اليمامة، وحارب جيوش المسلمين حتى قتلوه. (ابن جريس).

(٤) قصد فيلبي بكلمة (سيدهم) أي الرسول (صلى الله عليه وسلم). (ابن جريس).

(٥) ما ذكر فيلبي صحيحاً، فلقد قام الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن بعد معركة الحديقة ضد مسيلمة الكذاب، والتي قتل فيها عدد كبير من قراء القرآن الكريم. للمزيد انظر: الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٢٨١، وما بعدها. (ابن جريس).

الطين يزيد عن ثلاثة أو أربعة أقدام فوق القبور، وبالتالي لابد لنا أن نفترض أنه إما أن تكون القبور أكثر حداثة مما يُعتقد أو أن الطمي قد ترسب حيث يوجد الآن وأنه كان، بصورة عملية، في مستواه الحالي قبل معركة الجبيلة[١]. ومن المؤكد أن الرأي الأخير ليس مستحيلاً.

إن القرية، التي لا يسكنها الآن إلا عدد قليل من السكان البائسين مهدمة معظم أجزائها، تقع على بعد ربع ميل من مقابر الصحابة على الضفة المقابلة، أو اليسرى، من القناة. وبقع أشجار الأثل المنتشرة هنا وهناك تكسر رتابة اللون الأسمر الفاتح الذي يسود بصورة كئيبة في طبقات الطمي الشاسعة التي تسد الوادي. ويمكن مشاهدة عدة آبار أحدها بئر مطوية بالحجر قريبة من القرية وتستخدم بانتظام. وبيوت القرية ليست غير هياكل مبان متهدمة من الطين والتي نزعت منها الأخشاب. وعلى الرغم من ذلك لا يزال العديد منها في حالة معقولة من الحفظ، حيث لا تزال الأعمدة الصخرية المغطاة بالجبس تدعم سقوفها. وفي أحدها عثرت على دعاء وعاءً من الطين مغطى بلياسة بنية رقيقة يستعمل لتخزين التمر، الذي لا يزال محتفظاً بالعصارة من محتوياته السابقة. بيد أن أفضل المباني المصانة في القرية كلها هو المسجد بعمارته الوهابية النموذجية[٢]. حيث كان سقفه مدعوماً بقناطر مستدقة تستند على أعمدة ذات رؤوس بسيطة، والتي تُذكّر المرء بالبرج المدرج المعروف وهو معكوس (مقلوب) والكثير من الجدران الطينية تقوّى بوضع ألواح صخرية مسطحة في نصفها الأسفل بشكل مائل وعليها آثر نقوش بسيطة.

---

(١) المعركة التي حدثت في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ ضد مسيلمة الكذاب لا تسمى في كتب التراث الإسلامي بـ (معركة الجبيلة)، وإنما يطلق عليها معركة الحديقة، للمزيد انظر، الطبري، جـ٣، ص ٢٨٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) جعل فيلبي كلمة (الوهابية أو الوهابي) مطلقة على أي عمل سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، أو عمراني من صنع حكام الدولة السعودية أمر فيه إجحاف وعدم دقة علمية، لأن الوهابية - كما ذكرنا سابقاً - ليست إلاّ حركة دينية تهدف إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) (ابن جريس).

في العصور الحديثة نسبياً كانت جبيلة قد كوّنت مقاطعة يحكمها أمراء من آل معمر من العيينة، وأخيراً انهارت واختفت خلال صراع عبد الله وسعود[١]، قرب نهاية القرن التاسع عشر[٢].

والمنطقة من حولنا وبجانبنا قليلة التأثير في النفس مثل أي شيء رأيته من قبل، فهضبة طويق الكئيبة والخالية من المعالم تمتد في جميع الاتجاهات بتشابه ممل لا نهاية له ولا يقطعه إلا جبل هضبة صلبوخ المنخفض في الشمال الشرقي.

كان ابن سعود وجيشه قد استيقظوا وساروا بعيداً قبل أن أستيقظ بوقت طويل على صوت متحرك الأجش وهو يوبخ بعنف إما الطباخ أو الإبل. بيد أنني لم أركب أيضاً وأنطلق في الوادي إلا بعد فحص القرية وما يجاورها فحصاً كاملاً. وكان مسارنا يتجه بشكل ما نحو الغرب لنحو ميل ونصف عندما وصلنا إلى الطرف الشرقي للعيينة عند مجموعة صغيرة من البيوت القريبة من كتلة كبيرة من أشجار الأثل.

في هذه النقطة يدخل شعيب مقربة الذي يبدأ بالقرب من العمارية، الوادي من جهة الجنوب، بينما في وقت مبكر نسبياً كنا قد تجاوزنا فم مجرى سيل يسمى أم سليم الذي يدخله الوادي من الشمال.

إن مدينة العيينة، التي كانت مشهورة ذات يوم تمتد شرقاً وغرباً على طول كلا جانبي قناة السيل لنحو ميلين، ليست الآن سوى الخراب الممقوت، وقد اغتصبت الأيكات الصغيرة من أشجار الأثل المساحات التي كانت محفوظة ذات يوم لمزارع النخيل المزدهرة، والمدينة الرئيسة التي تسمى الحلّة والتي كانت في يوم من الأيام مقراً لسكنى

(١) ويعود ذلك جزئياً إلى نقص في إمداد المياه. (فيلبي).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات التي حصلت بين عبدالله وسعود في الدولة السعودية الثانية خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، انظر: وليام فيسي، الرياض، ١٩٥ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية. تاريخ الدولة السعودية الثانية (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص ١٩٥ وما بعدها. (ابن جريس).

الأمراء من أسرة ابن معمر الحاكمة لا تختلف عن القرى الصغيرة التي تنتشر في المنطقة هنا وهناك إلا في كونها تغطي مساحة أكبر بأنقاضها ومبانيها المتهدمة. وبين الحين والآخر قد يصادف المرء بقايا معمارية مثل: أعمدة ذات تيجان كما هو الحال في الجبيلة، وقناطر مستدقة وفتحات تهوية مثلثة الشكل متفرقة في مجموعات للزينة.

وتتناثر هنا وهناك آبار لا ماء فيها، ذات بناء صلب وخزانات مياه مبطنة بالإسمنت بالكامل. وكانت ضفاف السيل تواجهها جدران حاجزة قوية جداً والتي تستمر في حفظ مياه السيول داخل قناتها، على الرغم من أن أولئك الذين شيدوها لحمايتهم قد رحلوا منذ زمن بعيد، كما أن مساكنهم، التي حموها من الفيضان، قد انهارت وتحولت إلى غبار. وقد لاحظت في بعض هذه الجدران كتلاً عظيمة من أحجار البناء التي يبلغ طولها قدمين وعرضها قدماً واحداً.

يقترب الطرف الغربي من الحلة من نتوء مخروطي مطلاً على ما حوله، ربما كان تلاً يدل على قرية قديمة، وذلك مع انتظامه ودقته، وتقول الروايات: إنه كان ذات يوم واقفاً في وسط مدينة ابن معمر؛ فقد صعد الأمير الحاكم في تلك الأيام هذا التل بصحبة كريمته، التي قطعت تعجبه وانبهاره بالمنظر الممتد أمامه، ووجهت له نقداً مقتضباً بأن المدينة ستكون أفضل دون التل في وسطها. وعند ذلك صدر الأمر بإزالة النتوء إلى موقع أكثر ملاءمة، ولا يزال قائماً هناك ليثبت صحة الرواية. من المؤكد أن العيينة كانت في الماضي وحتى ظهور أسرة ابن سعود الحاكمة في الدرعية عاصمة لإمارة كبيرة، تضارع إمارة منفوحة. إن تدهورها يعود إلى تلك الأيام التي رفض فيها أميرها الفرصة التي وضعها في متناوله مؤسس الوهابية، ولا ريب أنه قد أضاعها سدى في الحروب التي جاءت بعد ذلك مع أمراء الدرعية[1].

(١) لمزيد من التفصيلات عن أمراء نجد أثناء ظهور الإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب، وكيف تحولت الأمور إلى صالحها وقيام الدولة السعودية الأولى، والقضاء على الإمارات الصغيرة الأخرى في نجد، انظر: أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص ١٣ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض، ص ١٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

ومنذ تلك الأيام لم تسترد عافيتها قط، على الرغم من أنها قد تنتعش مرة أخرى كمعسكر جديد للإخوان. تجاوزنا منطقة آثار العيينة عبر طريق مشجر منتظم بأشجار الأثل النامية نمواً جيداً، والذي ينتهي بالقرب من آخر قرية باتجاه الغرب في المنطقة.

والآن قد ولينا وجوهنا نحو الغرب صاعدين في الوادي، الذي يبلغ عرضه في هذه النقطة نحو ميل ليتسع إلى ميلين وأحياناً ثلاثة أميال كلما ارتفع، وعلى اليمين لاحظنا شعيب حقر يهبط في الوادي، ويرتفع، كما قيل، في خزان كبير مبطن بالإسمنت على جانب الجبل، وهذا باحتفاظه بمياه الأمطار وما يتصرف من الجبل لا يزال يؤدي دوره في ري مساحة واسعة من الأرض المزروعة بالحنطة وسط تلك الخرائب. والرافد الثاني للوادي يقع أيضاً على يمين مسارنا، هو شعيب العيينة الذي ينزل من أرض مرتفعة ضيقة تفصل وادي حنيفة عن وادي سدوس. لابد أن بيلي[1] (Pelly) قد سلك هذا الوادي عندما سار من سدوس إلى العيينة عام (١٨٦٥م)، حيث وصف المنطقة بأنها مرتفعات ذات بقع خضراء معزولة. وقد وجد العيينة مهجورة ولكنها مهدمة قليلاً.

وفور مغادرتنا العيينة عبرنا قناة سيول وادي حنيفة، التي أصبحت من هنا على يميننا وذلك عند ملتقاها مع شعيب زلق الذي يأتي من الجنوب. والآن سرنا بمحاذاة المرتفعات التي تشكل الضفة اليسرى من الوادي، وتركنا القناة على بُعد مسافة إلى يسارنا، ولم نعبرها مرة أخرى إلا بعد وصولنا إلى مخيم ابن سعود المنصوب في حوض دائري واسع يتكون من التقاء قناتين تشكلان موردين من موارد وادي حنيفة.

---

(١) بلي: هو العميد لويس بلي ولد سنة (١٢٤١هـ/١٨٢٥م)، عمل في مهمات عديدة لحكومته بريطانيا، وأخيراً وافته منيته في سنة (١٣١٣هـ/١٨٩٥م)، للمزيد من التفصيلات عن رحلته في الجزيرة العربية، انظر: الليفتنانت كولونيل لويس بلي. رحلة إلى الرياض. ترجمة عبدالرحمن آل الشيخ، وعويضة الجهني (الرياض: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص ٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وعلى اليسار شعيب غرور الذي يخرج عند هذه النقطة من خليج كبير في مرتفعات طويق، وعندها يلتقي برافد أصغر منه يسمى شعيب بوثه وهو أقل أهمية من منافسه وادي الحيسيه الذي يمكن في الواقع أن يعتبر امتداداً حقيقياً لمرتفعات وادي حنيفة[١]. إن ملتقى القناتين يُعرف باسم ملاقي عندما قرر ابن سعود لسبب غامض أن يبقى هنا لقضاء الليل. ولقد استطعت أن أتجول بين الجبال المجاورة لكي أتعرف على المنطقة التي ـ إحقاقاً للحق ـ ليس فيها إلا القليل مما يثير الاهتمام ويستدعي ذكره. إن التربة في هذه المنطقة من الرمل الضارب للحمرة، والجبال حول الوادي من الحجر الجيري الذي يغطي الصخور الرملية.

وكل ما حولنا كان رتيباً مملاً وكئيباً باستثناء ما هو في جهة الشمال الغربي حيث تبرز قمتا بكين كحارسين على الطريق المؤدي بينهما فوق الهضبة إلى سدوس.

ولهذه النقطة التي تبعد حوالي أربعة أميال اتجهت في الصباح التالي، ملتزماً قناة وادي الحيسيه الواضحة للعيان بخط أشجار السنط (الطلح) الطويل، التي قيل: إن أوراقها تجدد نفسها في بداية الخريف، على الرغم من عدم سقوط أمطار في ذلك الفصل، لتوفر علفاً طازجاً للإبل يُمكنّها من السير أربعة أو خمسة أيام بلا ماء. أما باقي الوادي الذي يبلغ عرضه نصف ميل فكان مغطى بقليل من شجيرات الصحراء، مثل: الأرطي والعرفج والعوسج[٢].

ومن قمة بكين الغربية وأعلى ذروتها البالغة (٣٢٠٠) قدماً فوق سطح البحر ومائتي قدم فوق الوادي، عند هذه النقطة تمكنا أنا ومترك والجنيفي من إلقاء نظرة رائعة وواسعة على الهضاب والوديان الممتدة في سلسلة طويق ونحن نتناول فطورنا

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن وادي حنيفة، انظر: عبدالرحمن الشريف، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أوصاف هذه الأشجار وغيرها في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات للدينوري، كما انظر: آر. اي. تشيزمان، ص ٥٧١ وما بعدها، فريدة قدح. الغطاء النباتي في الإقليم الجنوبي الغربي (أبها: النادي الأدبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٢٤ وما بعدها. (ابن جريس).

من الخبز والماء. وفي اتجاه الشمال وعلى بُعد ميلين على طول واد واسع يصب في حوض الخفس تقع واحة سدوس الساحرة، التي يسهل تمييزها بكل تفاصيلها على الرغم من أنها كانت لسوء الحظ بعيدة جداً عن طريقنا بحيث أنه لا يمكننا زيارتها. كانت بساتين النخيل تبدو ممتدة على طول قناة السيل لنحو ميل وبعرض مئتين أو ثلاثمائة ياردة، وفي أقصى الطرف الشرقي من هذا الحزام يوجد هناك قصرٌ بارزٌ، بينما هناك قريتان صغيرتان على كلا جانبي النخيل أقرب إلى الطرف الغربي. والقرية الواقعة في أقصى الشمال تعرف باسم الرس، بينما الأخرى تسمى الحلة التي كانت ذات يوم مشهورة بالمسلة الرائعة من أيام الجاهلية، ويحتمل أن تكون أثراً مسيحياً. وقد كانت هذه المسلة لا تزال منتصبة عندما زارها بلي وقد رسمها[١] أحد أعضاء الفريق المصاحب له، ولكنها منذ ذلك الحين قد طُرحت أرضاً وحُطمت تلبية لرغبة الجماعة الوهابية[٢].

تضم الواحة نحو خمسمائة نسمة من سلالة بني تميم، بينما عدد السكان في القريتين الأصغر منها وهما حزوة والمحرقة يبلغ ثلاثمائة في كل واحدة. وهما على التوالي على بعد ميل ونصف وثلاثة أميال في أسفل الوادي، ولكنهما واضحتان للعيان من النقطة المرتفعة التي أقف عليها. لقد كانت سدوس موطن أجداد صاحبي، الجنيفي، ولكنه لم يزرها إلا مرة واحدة في حياته، ولم يُبد رغبة في تكرار هذه المغامرة، قائلاً: إن أهلها كانوا مثل الثيران، في قوتهم وذكائهم.

وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقي كان طرف عرمة مرتفع يلوح للعيان بصورة باهتة، وإلى الشمال الغربي نستطيع أن نرى وادي حريملاء الذي يفصل بينه

(١) لمزيد من التفصيلات عن زيارة بلي لمنطقة نجد وبخاصة الرياض، انظر: كتابه، رحلة إلى الرياض، ص ١٤٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) خُطمت لأنها كانت ربما من الأماكن التي يتبرك بها الجهلاء بالدين الإسلامي الصحيح. وكان هناك كثير من الأضرحة والأماكن التي يتم التبرك بها في أنحاء الجزيرة العربية وبعد ظهوردعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عمل أتباع هذه الدعوة على محاربة كل البدع والخرافات. (ابن جريس).

ووادي سدوس هضبة واسعة. ويعد وادي حريملاء رافداً آخر من روافد حوض الخفس، ونحو الجنوب الغربي رأينا الثغرة في جبل طويق التي تبين موقع ممر الحيسية، وإلى الجنوب وراء خط وادي الحيسية وجبل الملقى يمتد الظهر الواسع لمرتفعات طويق إلى مسافة بعيدة.

في أثناء جلوسنا هنا ـ غير راغبين في انتزاع أنفسنا من هذه المشهد ـ لاحظت انتشار متحجرات متناثرة على طرف التل، وقبل أن ننزل لإبلنا المنتظرة في الأسفل قمت بالتقاط مجموعة من هذه المستحاثات (المتحجرات) لآخذها إلى المتحف البريطاني. وقد تم منذ ذلك الحين فحصها ووصفها، واتضح أنها من العصر الجيوراسي.

وتحت بكين يتوزع الوادي نسبياً بصورة لا نهائية في عدد من الخلجان الواسعة الجارية في متاهة الهضبة، وأهم هذه الخلجان كان يُدعى الجيري، وعلى الرغم من ذلك فإن شاطئ سيل الحيسية الحقيقي يتابع الضفة المقابلة أو اليمنى من الوادي، ويلتف معها من الاتجاه الشمالي الغربي إلى الجنوب الغربي. وهناك غابة مألوفة من أشجار الطلح تبين التقاء شعيب خمر من الغرب مع الحيسية الذي ـ بعدما يتلقى مزيداً من الروافد ذات الأشجار الكثيرة في شعيب مزروع ـ يجري صاعداً في وادٍ ضيق قاحل جداً، وتوجد على جانبيه منحدرات عالية يصل ارتفاعها إلى مائة وخمسين قدماً. وبعد مسافة سبعة أميال تقريباً وصلنا ممر الحيسية الذي يمكن اعتباره أحد روافد وادي حنيفة، وتدل عليه أشجار الطلح المنتشرة، وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٣٢٠٠) قدمٍ فوق سطح البحر، وتبعد عن البطين بنحو (٤٦) ميلاً.

وقد رأيت الآن وادي حنيفة كله من أقصى مسافة نحو الجنوب حتى اليمامة، وهي مسافة تزيد قليلاً عن مائة ميل، وفي أثنائها يهبط نحو (١٩٠٠) قدم. لم يكن المنظر عند مستجمع مياه الأمطار جذاباً، فأمامنا كانت الأرض تنحدر في مثلث

واسع يتشكل من جروف مرتفعة في طويق متباعدة، وينتهي على كلا الجانبين في رؤوس ناتئة تسمى خشم الخرشة في الجنوب وخشم الحيسية في الشمال، وبين هذين الطرفين كانت قاعدة المثلث هي رف مركة الجرداء المكونة من الصخر الرملي الأحمر. وبعدها كان هناك انحدار حاد إلى وادي البطين في الأسفل. ويتلوى شعيب الحش في البداية منحدراً في حوض ضيق عميق، وبعد ذلك يجري بصورة هادئة في شاطئ أوسع، نازلاً في المنحدر إلى أن يتسع عند الحافة القريبة من رف مركة، فيما كان سابقاً مستوطنة كبيرة ومزدهرة وفي النهاية يجد طريقه خلال الحاجز الصخري حتى وادي البطين.

تقع آثار مستوطنة الحيش على بعد أربعة أميال تقريباً من مستجمع أمطار حنيفة، وتتكون مما لا يزيد عن بقع متناثرة من أشجار النخيل القصيرة جداً وثلاثة آبار، إثنتان منها مبطنتان بالحجر ويستخدمان بانتظام، وتوفران قدراً وفيراً من الماء على عمق حوالي قامتين، ويكون لون الماء عند استخراجه في البداية أزرق اردوازي بسبب طبقات التربة السفلية، ولكنه يصفو إذا ترك بعض الوقت، وهو ذو نوعية ممتازة. وهذا المشرب يخص قبيلة قحطان[١].

وعند وصولنا هنا وجدنا ابن سعود مع مضيفه قد خيما لقضاء هذا اليوم معاً، وهنا أيضاً بعد النسيم البارد الجنوبي الغربي الذي كان ملائما لسيرنا تعرضنا لواحد من تلك التغيرات المفاجئة التي تشيع في مناخ الجزيرة العربية، فقد قضينا فترة العصر كلها ونحن في هياج شديد نحاول جاهدين أن نحافظ على خيامنا ثابتة تحت أسنان ريح حارة هبت كما لو كانت من فرن. ولم تتجاوز الحرارة مائة وعشرة درجات، وهي عادية تقريباً بالمقارنة مع الرياض، ولكن عند منتصف الليل لم تكن

(١) يقصد بقبيلة قحطان أي قحطان نجد وليست الجنوب، للمزيد، انظر: الحقيل، كنز، ص ١١٩، ٢٧٢. (ابن جريس).

أقل من (٨٩) درجة، وفي الخامسة صباح اليوم التالي ثبتت عند (٧٩) درجة[١].

لا يشكل ممر الحيسية أي صعوبة لمرور الإبل[٢] وربما يكون الأسهل من بين كافة ممرات طويق، ولهذا السبب اختير درباً للحجاج[٣]، وهو في الحقيقة الذي التزمناه منذ غادرنا الرياض والآن يصل حتى ضرماء، ويلتقي بطريقي في الغرب الذي سلكته خلال ديسمبر الماضي عند تلك النقطة.

٢ـ المحمل الغربي

في خلال اليومين التاليين الثامن والتاسع من أغسطس، لم نقطع أكثر من ستة وعشرين ميلاً، وكان خط مسارنا يمتد عبر منطقة المحمل الغربي، وهي بقعة خصبة تقع بمحاذاة الامتدادات العليا لوادي البطين أو ضرماء، وتعرف هنا باسم بطين الهوار، وبطول يبلغ حوالي (٢٥) ميلاً، ومتوسط عرض لا يزيد عن عشرة تمتد هذه المنطقة من الجنوب الشرقي حتى الشمال الغربي بين سلسلة جبال طريف الحبل في الحدود التي تحدها من الشمال وما يجاور ضرماء، وحدّها الشرقي هو جرف طويق من خشم الحيسية حتى النقطة التي عندها يتشعب شعيب العتش (العتك) في مجراه نحو الشرق، بينما في الغرب يقع جبل منخفض من الصخر الرملي يسمى صفرة الشمس.

لقد قام ابن سعود كالعادة بتفكيك المخيم، وانطلق في السير من العتش (العتك) قبل أن أستيقظ بوقت طويل، وتبعته مجموعتي الصغيرة على مهل. بهذه الطريقة

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن درجات الحرارة في منطقة نجد وغيرها خلال فصول السنة. آر. اي تشيزمان ص ٦٠١ – ٦٠٨، عبدالرحمن الشريف، جغرافية، ص ٥٩ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) بعد ذلك أصبح طريقاً للسيارات التي حلت محل الإبل والحمير في نقل المسافرين والأمتعة المختلفة (فيلبي + ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن طريق الحج والتجارة منذ صدر الإسلام حتى القرن الرابع عشر الهجري، انظر: الإمام إسحاق الحربي. كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ص ٢٨١ وما بعدها، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ٢٣ وما بعدها، عبدالقادر الجزيري، (لدرر الفرائد المنظمة، (٣) أجزاء. (ابن جريس).

فقط كنت آمل أن أفحص المنطقة بالتفصيل، بيد أنني كنت أضطر دائماً إلى الإنصات إلى عروض ومقترحات السير ليلاً ثم أتجاهلها تماماً. لقد كان رشيد والجنيفي يكرهان كثيراً السير أثناء حر النهار في درجة حرارة تبلغ مائة وعشرة درجات في الظل، أما مترك فكان دائماً مستعداً لأداء أي شيء يُطلب منه.

لقد كانت هناك ثغرة واسعة في رف مركه والتي منحتني نظرة جيدة باتجاه الجنوب لمسافة بعيدة حتى نفود الجوا، وكان من الممكن رؤية ممر ريع البرقاء وراء ضرماء، ولكن الأخيرة نفسها كانت غير مرئية، في حين برز جبل القريدان الهائل كعلامة أرضية مميزة طوال سيرنا في هذه المنطقة التي دخلناها في الحقيقة عندما عبرنا شعيب غديدة بحوضه الضيق بالقرب من مجموعة أشجار النخيل القصيرة. هذا السيل يهبط من مرتفع خشم الحيسية ويلتقي ببطين الهوار عند مزرعة النقيعة التي حازها مؤخراً محمد، الأخ الأكبر لابن سعود.

بعد ذلك بفترة قصيرة نزلنا من الرف إلى مستوى الوادي في منخفض الفيقة الواسع، وبعد ذلك فيما عدا سلاسل التلال المتكررة أحياناً، يصبح سهل المحمل منبسطاً بغير انقطاع أو عوائق حتى الوصول إلى جبل العريض الأوسط في قطاعه الشمالي. لقد كان منظر الذبول البادي في كل مكان بالمنطقة بالغ الدلالة على نقص الأمطار خلال الشتاء الماضي، حتى أشجار الطلح على طول خط قناة السيل[١] كانت يابسة.

على يميننا تجد النسق اللانهائي من الرؤوس[٢] الأرضية يقف بارزاً من جرف طويق وعلى فترات متقطعة عبرنا أحواض السيل الجافة، والتي كانت بداياتها في الخلجان الواقعة بين كل زوج من النتوءات الجبلية.

---

(١) قناة السيل تسمى أيضا (أبا الصافي). (ابن جريس).

(٢) الخرسة، والحبسية، والمهقبة، والرميذة، وتراب، والحصن، على التوالي من الجنوب إلى الشمال (فيلبي + ابن جريس).

عند نقاط التقاء هذه الجداول المائية مع القناة الرئيسة توجد مزارع متناثرة تتكون كل مزرعة من قصر واحد ورقعة من أرض الحنطة بالقدر الذي يمكن زراعته بالري من بئر واحدة يقع داخل أسوار القصر. ومثل هذه المزارع كانت بُليدة والهجيلة غير بعيدتين على يسارنا قبيل وصولنا إلى قرية وبستان نخيل العويند على شعيب بالاسم نفسه.

كان بستان النخيل بمساحة تبلغ (٢٠٠) ياردة مربعة، محاطاً بسور من الطين وبداخله قصران في زواياه بالجهة الغربية، بينما كان يوجد مبنى آخر مشابهاً خارج السور ناحية الشرق بجوار رقعة من أشجار الأثل. وسكان هذه القرية الصغيرة لا يمكن أن يزيدوا عن خمسين نسمة، وهم ينتمون أصلاً لقبيلة حرب، جاؤوا إلى هنا من منطقة السر. وقد اكتشفنا بالتجربة أنهم كانوا قوماً غير كرام وبخلاء، عندما تركنا مسارنا تجاههم على أمل تناول ما ينعشنا من طعام أو شراب، كان هناك رجل طاعن في السن يجلس على مصطبة من الطين خارج أحد المباني عندما وصلنا، وبعد فترة قصيرة برز شاب من الداخل ودعانا فوراً للقهوة ونادى بأعلى صوته على ولد في الداخل ليعد المجلس. بعد ذلك قال لنا: إنه ليست لديه أي أدوات لعمل القهوة، وقد اضطررت إلى كبح جماح الجنيفي المرهق عن تقديم المساعدة له للتغلب على حل هذه المشكلة؛ لأنني لم أكن أرغب في إجباره على الاعتراف المشين بأنه ليست لديه قهوة، ثم بعد صمت قصير نصحنا بالقول: إننا قد نجد قهوة جاهزة في أحد القصور الأخرى. وقد أكدت له أننا لم نكن نريد أي شيء سوى كوب من الماء، وفي أثناء إحضار ذلك جلسنا على المصطبة في الخارج نتجاذب أطراف الحديث مع الرجل المسن، الذي ثبت أنه ثرثار وفضولي في آن. وحيث إنه لم يكن صاحب البيت فقد توسل إلينا أن نبقى على أمل ـ بلا ريب ـ أن يتذوق قهوتنا، ولكننا رفضنا البقاء مما أراح الشاب، واستأنفنا سيرنا بعد شرب الماء. إن الماء هنا مثلما هو أيضاً في

البرة وفي المنطقة كلها بشكل واضح كان طعمه معدني غير مستساغ قليلاً، حيث كان عمق الآبار في هذه الواحة يتراوح بين ثمان وعشر قامات.

كان ابن سعود قد نصب خيامه لقضاء النهار بعد الطرف الشمالي من البرّة، التي تقع على بُعد ميلين إلى الشمال الغربي من العويند، ويمكن أن تعتبر عاصمة المنطقة. وتمتد على طول الحوض الواسع لمجرى سيل يسمى أبو كتادة، وهو رافد من بطين الهوار يرتفع إلى جرف طويق، ويشترك في مستجمع أمطار واحد مع شعيب حريملاء. تمتد بساتين النخيل في هذه الواحة لنحو ميل على طول حوض السيل من الشمال الشرقي حتى الجنوب الغربي، ومساحاتها كبيرة ولكل منها قصر خاص به.

وفي وسط الواحة ينتصب حصن هائل يسمى قصر عجلان، وهو مربع الشكل وضلعه ستون ياردة وبه أسوار قوية مشيدة من الطين تشييداً جيداً تعلوها أبراج. والجزء العلوي من البرج ناتئ للخارج، ومطل إلى أسفل على شكل مظلة مصباح، وهناك ثلاثة فتحات ذات قناطر غير متقنة دون أبواب تؤدي إلى الحصن من الخارج. وصاحبه، ابن عجلان، ينتمي هو وتابعوه المائة في الأصل إلى هذيل وهي قبيلة من الحجاز، وكانت أصلاً فخذاً من مطير[1]. وإلى جنوب هذه القلعة تقع قرية البرّه نفسها غير المسوّرة، وهي مجموعة من البيوت منتشرة في غير نظام على مساحة تبلغ نحو (٢٠٠) ياردة في الطول و (١٠٠) بالعرض. وليس فيها سوق، والشارع الرئيسي فيها الذي يقع فيه المسجد فرعٌ من مجرى سيل يدخل ويخرج من القرية عبر صف من القناطر التي تدعم الجدار الذي يسد الشارع على كلا الطرفين. والسكان، الذين يبلغ عددهم (٤٠٠) نسمة ونحو مائة آخرين يسكنون القصور المتناثرة، وينتمون إلى عشيرة بني خالد وكان أميرها المحلي ابن ماجد، الذي شرفني بتناول العشاء معي في تلك الليلة. وقد أثبت أنه صريح بصورة غير عادية،

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلتي هذيل ومطير، انظر: الحقيل، كنيز، ص ١٣٦، ٢٢٣. (ابن جريس).

على الرغم من أن موضوع الحديث كان عن الكرم والسخاء الذي أسداه إليه العقيد هاملتون الذي نزل ضيفاً عليه في الخريف الماضي. وقال بصراحة متناهية: إن سخاءً مماثلاً من جانبي لن يضيع سدى، وإنني لواثق من أنني قد كسبت وده واعترافه الأبدي بالجميل بهدية لا تزيد عن عشرة دولارات. ليس للقرية بوابات، بيد أن بعض البيوت تعلوها أبراج من النوع الذي وصفناه سلفاً. والآبار بعمق سبع أو ثماني قامات[١]، ولكن الماء له الطعم غير المستساغ نفسه مثل ماء العويند، باستثناء بئر واحد تقع بعيداً جداً عن الواحة في الشمال، والتي يؤخذ منه ماء الشرب. وقد لاحظت في هذه المنطقة رواسب من الجبس ذات نوع رديء، والتي يستخدمها الناس المحليون في عمل الجص أي الجير المحروق.

وقد وعدنا ابن ماجد أن يعثر في ليلة واحدة على دليل ذكي ليصاحبني حتى شقراء،[٢] ولكنه لم يفعل شيئاً إلا بعد أن زاره الجنيفي ليذكّره بكلمته، فقدّم رجلاً لا يبشر مظهره بالنجاح، والذي يبدو أنه قد لقنه أسماء الأماكن التي يُرجّح أن يقابلها قبل أن يحضره لنا. لقد كان الرجل، واسمه حمد بن هزاع ومن فخذ الأمير نفسه من سُبيع، غير شغوف بصورة دقيقة في أداء المهمة، وطلب ستة دولارات راتباً بدلاً من خمسة، ووعدته بدفع سبعة إذا أثبت أنه مقنع ومقبول، وبحلول نهاية اليوم عزمت في سريرتي أن أضاعف له مكافأته. فقد برهن على أنه واحد من أفضل الأدلاء الذين عملوا معي، على الرغم من أنه يبدو أنه لا يعلم شيئاً على الإطلاق عن المنطقة خارج نطاقه المحدود، ولكنه كان يعرف الطريق من الرياض حتى شقراء وكل شيء ظاهر منه على كلا الجانبين كأنه كتاب. وقد كان طريفاً وجذاباً فوق ذلك.

---

(١) يظهر على الآبار أن أعماقها قليلة جداً، وهذا مما يدل على وفرة المياه في تلك المناطق. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن مدينة شقراء انظر: أحمد محمد العثمان. شقراء (الرياض: دار طيبة للطباعة والنشر، د. ت) ص ١١وما بعدها، محمد إبراهيم عبدالله العمار. شقراء (الرياض. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

سألني ذات مرة : «هل عندكم نخيل في بلدكم؟». فأجبت: «لا». «إذن بلا شك يزرع شعبكم الأرز؟». فقلت: «لا، ولا حتى الأرز، ولكن الحنطة فقط». فتعجب قائلاً: «والله! عرب!» يعني أننا لا بد أن نكون في مستوى قومه إذا كنا لا نزرع إلا الحبوب[١].

عندما واصلنا سيرنا من البرّه لاحظنا الكثير من المزارع المتناثرة حول المنطقة، فهناك بستان النخيل المزروع حديثاً في أرض مسورة قريبة من الواحة على دربنا، وقصر سهك[٢] عن يميننا على بُعد ميل، وبرج منحث الرفيع وقصر الحسينية على مبعدة من يسارنا أمام الهضبتين المزدوجتين ذواتي القمم المسطحة اللتين تسميان قوار[٣] الحوار مقابل جبل الصخر الرملي. ويرتفع أمامنا نتوء الذينه الشاهق الذي يشكل الطرف الجنوبي من جبل العريض والذي سرعان ما وضعنا قبالة المجرى الأعلى لبطين الهوار. وإلى البعيد عن يميننا يقع جبل أم الحجير خلف سهك عندما عبرنا الحوض الرملي لمجرى سيل عريض يسمى الثرمانية الممتلئ بشجيرات الحرمل والسلم، وبعد ذلك فوراً شعيب القليلات الذي سُميّ كذلك بسبب كثرة الروابي الصغيرة الناتئة في السهل كلما اقتربنا من الجبل.

هنا دخلنا مرة أخرى في طريق القوافل الرئيس من الرياض إلى شقراء، الذي يمر من جنوب البرّه، حيث التزمناه على طول المنحدر الذي يهبط من جبل العريض إلى بطين، وبعده بحوالي خمسة أو ستة أميال لاحظت رابية قرة الشمس فوق جبل الصخر الرملي. وبجوارها توجد مزرعة تخص رجل من البرّه، وبعدها بميلين توجد

(١) أسئلة هذا الدليل تدل على عدم معرفته الواسعة عن سكان الجزيرة العربية، وبخاصة ما يتعلق بالشعوب الأخرى البعيدة. وهو وأمثاله معذورون لأن وسائل الثقافة والإعلام كانت معدومة، ولكن في فترة وجيزة، خلال عدة عقود، أصبحت جزيرة العرب تضاهي دول العالم الكبرى ثقافياً وحضارياً. (ابن جريس).

(٢) سهل: ربما يطلق عليه أحياناً (صهك). (ابن جريس).

(٣) قوار جمع قرة. (فيلبي).

آبار الشميسة في وهد بالإسم نفسه. هذا وقد فشلت في الحصول على معلومات عن مكان يسمى دستقر مبين في الخريطة التي رسمها هنتر(Hunter).

في تتابع سريع عبرنا أحواض روافد صغيرة تصب في الوادي[١]. وفي الجبل نفسه ينتصب رأس خشم الصقور، وقد سمي بذلك بسبب تشابهه مع منقار الصقر، ومورد ماء قبيلة الشواف، وهو ملتقى الرعاة ويخص الشريف من الحجاز. وبعد مسافة واجهنا مجموعة صغيرة من الرعاة الإخوان ذكوراً وإناثاً، عند بئر أم الشطون الوحيدة غير المبطنة، وتحوي مخزون مياه ممتازة. كان الرعاة من قرية الغطغط سيئة السمعة، وقد كانوا شغوفين بسماع أي أخبار قد تكون لدينا عن تحركات المجموعة العسكرية من تلك المدينة التي من المقرر أن تنضم إلى ابن سعود في شقراء. وقد امتدحوني معتقدين أنني كنت «مدفعجي»[٢] (تركي) في خدمة ابن سعود، وتركناهم دون أن يعرفوني، وتقدمنا في سيرنا إلى رابية على الجبل، حيث استطعنا أن نستطلع المنطقة حولنا.

كانت النقطة التي نقف عليها تشرف على منطقة المحمل الغربي كلها من الغرب إلى الشرق وإلى حدودها الجنوبية أسفل القريدان، وهي تقع بصورة فعلية على الحاجز المائي بين البطين والهوار ومنخفض يُعرف باسم أم سدر الذي يبدأ من ملتقى طريف الحبل النفود وصفرة الشمس، ويتدفق نحو الشمال الشرقي على طول الحافة الجنوبية للرمال إلى أن يمر عبر حاجز طويق بمسمى شعيب العتش وغير بعيد عن هذه النقطة توجد قرية ثادق التي لا يمكن رؤيتها. بينما في الاتجاه نفسه ولكن على الجانب القريب من الجرف لمحنا مئذنة عالية رفيعة أو برج مراقبة يرتفع

(١) شعيب الثمام وثنية الرمل وغيرهما. (فيلبي + ابن جريس).

(٢) النقيب شكسبير قتل في معركة جراب (١٣٣٣هـ/١٩١٥م) التي وقعت بين ابن سعود وابن الرشيد. للمزيد انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٢، سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض، د. ن، ١٣٨٠هـ) ص ١٠٥. (ابن جريس).

فوق بيوت وبساتين نخيل واحة كبيرة، كان اسمها رغبة، من المحتمل أن تكون أكبر قرية في المنطقة، لأنها مشهورة بأنها تؤْوى نحو (٨٠٠) شخص، ينتمون إلى فخذ العرينات من قبيلة عامر سبيع، ويعيشون تحت حكم عبدالعزيز بن الخريف. ويبلغ طول الواحة ثلاثة أرباع الميل وعرضها (٢٠٠) ياردة تقع في حوض سيل يهبط من خشم الطرفية في طويق.

بعيداً وعن يسارنا ومن شعيب العتش (العتك) باتجاه الشمال يمتد جرف سدير الرمادي، وهو أقصى منطقة شمالية من جبل طويق والوحيدة المأهولة في نجد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى التي لم أتمكن أبداً من زيارتها. بيد أن معالمها الرئيسة معروفة بدرجة كافية، والفضل في هذا يرجع بصورة رئيسة إلى الراحل النقيب شكسبير (Captain Shakespear)، وقد يبدو من وصفه لها ومن أوصاف الآخرين الذين شاهدوا أجزاء منها أنها بقعة مزدهرة ومزاياها كثيرة. وإلى الغرب من الجرف ـ وبينه وبين رمال طريف الحبل التي تشكل الحد الشرقي لمنطقة الوشم ـ يقع شريط ضيق من الأرض الخصبة يسمى حمضة وتوجد فيه عدة قرى، هي الحريق وبها (٦٠٠) نسمة، وهي أبعدها نحو الجنوب، ثم القصب على بُعد ميل في اتجاه الشمال الغربي، وفريثان وهي مقر للإخوان من قبيلة مطير، على بُعد اثني عشر إلى خمسة عشر ميلاً نحو الشمال، وأخيراً بعدها الدهينه بنحو ثمانية أميال وهي الأخرى مقر للإخوان من قبيلتي مطير وعتيبة.

كان مستوى الأرض ٢٩٠٠ قدم تقريباً فوق سطح البحر عند النقطة التي نطل منها، والآن نزلنا منها لنستمر في سيرنا عبر حوض أم سدر[١] الذي تغطيه شجيرات الزعرور الشائكة التي تأكلها الإبل والشجيرات الجافة الأخرى. بعدها

(١) يصب شعيب أبا الفروه منحدراً من صفرة الشمس، بينما مجرى السيل التالي شعيب أبا الطي منحدره وهو جزء من شبكة بطين الهوار. (فيلبي).

مباشرة بدأنا نتسلق أمواج الرمل الوردي العميقة في النفود، ومن قمته لمحنا عن بُعد نخيل ثرمداء. وبعد مسافة ميل أو نحوه وراء الحافة البعيدة للرمال التي يبلغ عرضها هنا ميلين على الأكثر وجدنا ابن سعود قد نصب خيامه في منخفض يسمى خبت أم الجداول.

إن درجة الحرارة تحت تأثير الرياح الحارة قد ارتفعت إلى (١١٢) درجة خلال النهار، ومياه منطقة المحمل أفرزت شعوراً بالقلق العام وعدم الراحة والاكتئاب في المعسكر، ولهذا يعزى السبب في بطء تقدمه نحو الأمام. وكان ابن سعود يعالج نفسه بتناول جرعات من حبوب لداء في الكبد، وعلى الرغم من ذلك كان ينهي أعماله ومعاملاته بطاقته وحيويته المعهودة. وقد جاءت حديثاً حقيبة البريد من الساحل حاملة أنباءً مرضية عن التعهدات التي قدمتها حكومة صاحب الجلالة إلى الشريف حيث كان العاهل الوهابي مرتاحاً لها. وقد قضينا جميعاً النهار في إعداد الخطابات للبريد الصادر، والذي سوف يأخذه شخص يدعى صالح العذل الذي كان على وشك أن يتولى مهام وظيفته كممثل لابن سعود في الزبير.

والمذكور من مواطني الرس في القصيم[١]، وكان واحداً من أفضل الرجال في البلاط، وذا ملامح سامية ومعين لا ينضب من روح الدعابة والمزاح. وأكثر من ذلك فهو يتمتع بميزة نادرة في نجد كونه باشا تركياً[٢].

(١) لمزيد من الإضافات عن بلدة الرس في القصيم، انظر. عبدالله محمد الرشيد. الرس. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) هناك أشخاص كثيرون، في أنحاء الجزيرة العربية، من أصول تركية، آثروا البقاء في الجزيرة بعد خروج القوات العثمانية منها، واندرجوا في خدمة ابن سعود، وأصبحوا من سكان المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

٣ـ محافظة الوشم

جرياً على الطريقة التلقائية للعرب كان ابن سعود قد أطلق على شقراء اسم «ملتقى الأحباب» أي العناصر العسكرية المختلفة التي كان من المتوقع أن تنضم للوائه في الحملة العسكرية ضد حائل. لقد تم تسمية مكان اللقاء وتحديده، ولكن لم يكن هناك تاريخ محدد بدقة لهذا اللقاء، وهكذا توقفنا عشرة أيام في تقدمنا نحو الشمال على مهل وسط قرى الوشم، وهي واحدة من أهم المناطق في وسط الجزيرة العربية، على الرغم من صغرها. والعاصمة شقراء تأتي في الترتيب بعد عنيزة وبريدة من حيث الأهمية التجارية، لما لها من علاقات مباشرة مع المدن الواقعة على ساحل الخليج العربي[١]، وهناك ست من القرى الأخرى، تستحق تقريباً أن تُعدّ مدناً بالمقاييس العربية، تزوِّد عدداً هائلاً من السكان «البدو» في الصحاري المحيطة بها بالتمور والحبوب مقابل السمن والصوف، وفي الوقت نفسه فإن حواجز الرمال التي تطوق المنطقة بالكامل توفر الحماية من الأعداء من جميع الجهات، كما أنها مرعى لقطعان مواشي القبائل القاطنة فيها خلال الفترات المعتادة لتجمعهم في الوقت نفسه سواء كان ذلك أثناء الصيام السنوي أو للتسوق الموسمي.

إن الدهناء الكبرى ـ الامتداد الطبيعي للنفود الشمالي في منطقة شمر ـ تُلقي ذراعاً عريضاً من الرمل حول الطرف الشمالي لهضبة طويق في الاتجاه الجنوبي، وهو بعدما يندفع بين الزلفي وعنيزة يمد ثلاثة أصابع طويلة نحو الجنوب الشرقي من النقطة التي تصل عندها الحدود الشمالية للوشم. إن أرفع هذه الأصابع في

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن مدينتي عنيزة وبريدة وأهميتهما التجارية، انظر: محمد بن صالح الربدي. بريدة (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) جزءان، إبراهم المعارك. بريدة (الرياض، مطابع العبيكان، ١٤٠٧هـ)، ص ٥٥ وما بعدها، حسن الهويمل، بريدة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ١٢٥، محمد السلمان. مدينة عنيزة بين الأمس واليوم. (الرياض مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ١٤٥ (ابن جريس).

أقصى الشرق ينفصل عن جرف سدير بواسطة شريط حمضة، ويشتهر بأسماء النفود الشرقي ونفود شقراء وطريف الحبل[١] في أجزائه المتنوعة التي تشكل الحد الشرقي من منطقة الوشم. هذه المنطقة التي تتألف من بقعة بيضاوية من التربة ذات الصخور الرملية المنحدرة من جرف غربي إلى سفح الشريط الرملي الشرقي، وتذوب في الأودية بتدفق مجاري السيول، تُحاط من الغرب بحزامٍ عريضٍ من نفود الفنيفذة الذي يتلامس تقريباً مع رمال طريف الحبل في الجنوب[٢].

يشكل الوشم بموقعه هذا، حوضاً يتمتع بالاكتفاء الذاتي، ليس له مخرج لتصريف المياه، كما أن رخاءه الزراعي يعود بالتأكيد إلى حقيقة أن الأمطار عندما تسقط داخل حدوده يحفظها الحاجز الرملي عند قاع الأودية، وليس أمام المياه فرصة إلا أن تغوص في تربتها الرملية؛ ولذلك ينشأ مقدار معين من الملوحة في المياه، وبها ينمو نخيل المنطقة. والحبوب تزرع أيضاً على نطاق كبير في الواحات وخاصة في الوادي الواسع الذي يسمى البطين والذي يفصل هضبة الصخر الرملي المنحدرة وأوديتها عن النفود الشرقي. ويجري هذا المنخفض على طول المنطقة بالكامل من الشمال للجنوب، ويحتوي على مجموعتين كبيرتين من المزارع هما: قصور سنيدي مقابل شقراء وقصور دايل مقابلة لمرات، ناهيك عن واحة ثرمداء الكبرى. إن جميع قرى الواحات الأخرى تنتظم في صدور الوديان مثلثة الأشكال التي تقسم المنطقة من اتجاهين، غرب وشرق بين متاهة جبال الصخور الرملية.

عندما استأنفنا سيرنا في صباح العاشر من أغسطس مررنا أولاً بحقول الحنطة المهجورة في أم الجداول، ويقال: إنها مع القصرين اللذين يقومان في وسطها قد تدهورت لسببين هما: انعدام الأمن الناتج عن كفاح ابن الرشيد

(١) طريف الحبل يعرف قديماً باسم (عريق البلدان) للمزيد، انظر: عبدالله الضويحي. مرات (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ١٦. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه المواقع، انظر: الضويحي، مرات، ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

للمحافظة على موقعه من القوة المتزايدة لابن سعود في مستهل سنوات القرن الحالي أجبرت الرجال على البحث عن مكان آخر لكسب رزقهم. وفي الوقت نفسه كان الازدهار في تجارة اللؤلؤ قد وفّر مخرجاً مناسباً لكثير من أبناء الجزيرة العربية الذين لا يعلمون الكثير عن الذي قد يجني ثمار كدّهم وعملهم الزراعي. وهكذا فر من مناطق كثيرة مضطربة بسبب الصراع بين المتنافسين على السيادة في نجد أعداد من المزارعين إلى مهاد المحار في أعماق الخليج العربي، ولم تستطع الزراعة أن تستعيد أهميتها ومكانتها مرة أخرى إلا بعد أن أضعفت الحرب العظمى نفسها أهمية اللؤلؤ في الوقت الحالي[١]. وكانت «العودة إلى الأرض» هي الشعار الذي عليه أسس ابن سعود الصحوة الوهابية لحركة الإخوان، ومن المحتمل جداً أن تكون الآن «أم القنوات»[٢] قد توقف جفافها.

والتزمنا منخفض البطين حتى أتينا الآن إلى أرض شاسعة تتناثر فيها ثمانية مزارع حنطة وفيها بيوت مبنية على شكل حصون متشابهة في مظهرها، كل واحدة منها نحو خمس وعشرين ياردة مربعة، ولها أبراج مستطيلة بارزة، ويزيد ارتفاعها قليلاً عن جدران المباني. وفي كل قصر من هذه القصور يوجد بئر له قناة توصل المياه إلى الحقول في الخارج، التي تكون مقسمة بحدود ترابية صغيرة إلى أحواض صغيرة نحو عشرة ياردات مربعة. تعرف هذه المزارع وبيوتها بصورة جماعية باسم قصور دايل، وتخص كما يشير اسمها إلى فخذ دايل من قبيلة الوادعين من الدواسر[٣]، الذين يشكلون جزءاً من سكان قرية مرات المجاورة.

---

(١) وهذه من سلبيات الحروب في كل زمان ومكان، فإنها تضعف الاقتصاد، وتشتت الأيدي العاملة، وتزيد من أعداد البطالة. (ابن جريس).

(٢) أم القنوات: أي أم الجداول وهي البئر أو العين الرئيسة التي ينطلق منها العديد من القنوات والجداول المائية المستخدمة في الري. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قبيلة الوادعين من الدواسر، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٩٣. (ابن جريس).

في هذا الموسم بين الحصاد وبذر البذور القادم كانت المزارع حسب العادة مهجورة تماماً، وقيل لي: إن العادة المحلية قد جرت على ترك الأرض المحروثة للراحة فترات طويلة قد تصل إلى خمس وحتى ربما إلى عشر سنوات في إحدى المرات، للاستفادة من الخصوبة المتزايدة في التربة نتيجة هذه المعالجة[١].

وعلى بُعد ميل إلى الشرق من مزارع دايل وفي خليج دائري واسع من متاهة صخر رملي تقع واحة مرات التي تطل عليها رابية قارة كميت ذات القمة الشاهقة المسطحة. هذه القمة المكونة من طبقة كثيفة من الحجر الجيري وحجر الصوان فوق طبقات الحجر الرملي الحمراء السفلى ترتفع (٢٠٠) قدم تقريباً فوق الواحة حيث تعطي رؤية رائعة للمنطقة حولها لمسافة أميال. إلى الغرب كانت الرؤية محجوبة برمال نفود القنيفده بينما في الأسفل منا مباشرة تقع واحة مرات الممتدة شرقاً وغرباً لحوالي ميل بمتوسط اتساع يبلغ ربع ميل[٢]. وإلى الشمال تقع واحة ثرمداء وبعدها في جهة الشرق تمتد النفود ثم بعد ذلك مرة أخرى سهل حمضة بقراه التي يقف وراءها القوس العظيم لجرفي سدير وطويق بما فيهما من أجراف بارزة ورؤوس متجهمة. إن تدرج الألوان من اللون البني الضارب للحمرة في هضبة الوشم ذات الصخور الرملية، واللون القرنفلي الخفيف النقي في النفود، إلى الضباب الأرجواني في سدير الشاهقة، والظلال المظلمة في ممرات طويق الضيقة، كان مشهداً يصعب نسيانه.

إن قرية مرات[٣] التي تقع عند الطرف الغربي من الواحة محمية بسور ذي أبراج على طول جانبيها الشمالي والشرقي، كل جانب منهما بطول ثلاثمائة خطوة،

(١) إنهاك التربة بالزراعة المتتالية تفقدها بعض مكوناتها الرئيسة، ويستطيع المزارع معالجة تربة مزارعه بالتسميد والحراثة. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن بلدة مرات، انظر: الضويحي مرات، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) آبار مرات بعمق عشرة قامات وماؤها عذب ونقي ويعرف بأنه الأفضل في منطقة الوشم. (فيلبي للمزيد انظر: الضويحي، مرات، ص ٢٢. (ابن جريس).

ولكنه ينفتح مباشرة على الجوانب الأخرى حتى يصل إلى بستان نخيل شاسع يستمر من حوله السور في شبه دائرة واسعة. ويتم الدخول من السور عبر بوابة واحدة في الجزء الشمالي، والمبنى الوحيد خارج السور هو المسجد في الطرف الجنوبي منه. وللمسجد مئذنة مربعة عالية، كما يتكون صحنه من ثمانية قناطر مستدقة، أربعة منها كانت مشيدة بالطوب. أما أبراج الأسوار الخارجية وهي على هيئة ظل المصباح، النمط الشائع في هذا الجزء من البلد.

ولأن الجنيفي ومنور قد سبقانا ليعلنا قدومنا، فقد قابلنا لدى وصولنا عند البوابة شخص حيانا بترحاب حار ونادر، وقدم نفسه على أنه ابن عم إبراهيم الجميعة. بعد ذلك اصطحبنا عبر البوابة المبنية من الطوب اللين والخشب العادي بطريق معقد مروراً بالمسجد حتى بيت الأمير المحلي، حيث أنخنا بعيرنا. والآن شرح لنا دليلنا أن الأمير إبراهيم بن دايل، الذي تولى منصبه خلفاً لأبيه عندما توفي العام الماضي كان غائباً في ثرمداء لزيارة ابن سعود؛ ولذلك تقدمنا سيراً على الأقدام إلى منزل شيخ جماعة قحطان[١]، خالد بن دعيج، الذي تصادف غيابه أيضاً، وهنا استضافنا على القهوة أحد أقارب المضيف الغائب. كانت الغرفة في الطابق العلوي من المنزل، وجدرانها الطينية الجرداء غير مزينة إلا بالدهان العادي بالجير الأبيض في الجزء السفلي، وحتى ارتفاع ستة أقدام تقريباً، وتتميز عند القمة بأشكال برجية متدرجة. وكان السقف من جذوع النخل وروافد من خشب الأثل يدعمها عمود واحد في الوسط من الطين. والحجر المغطى بالجير والجبس، وهناك منور فوق موقد القهوة ليخرج منه للدخان[٢].

لم نمكث هنا طويلاً إلا وقد تم استدعاؤنا إلى بيت الأمير الآخر، حيث عند وصولنا أخذنا إلى غرفة كبيرة مزينة بالنقوش على جدرانها، وتدل على أن صاحبها

(١) عدد سكان مرات نحو (١٠٠٠) نسمة معظمهم من الدواسر وقحطان وفيهم قليل من العوائل الخضيرية. (فيلبي).
(٢) لمزيد من التفصيلات عن الأبنية وبعض النواحي الاجتماعية في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٣٩ وما بعدها. (ابن جريس).

رجلٌ ذو ذوق. فقد كان التماثل الممل للجدران الطينية ينكسر بستة أحزمة من الإفريز الجبسي مختلف[١] الأبعاد ونسب المسافات الفاصلة بين الأحزمة حتى إن واحداً منها كان له شكل مختلف وكان انعكاس هذا كله بالتأكيد ساراً جداً للعيون المتعبة من الفراغ الرمادي السائد في الفن الوهابي، المتميز بالبساطة وعدم الإتقان أو البراعة في التصميم الذي يعتمد في التأثير على تنوعات لا نهاية لها من الموضوع الوحيد المتاح من العناصر، وهي الدوائر والمثلثات، ومقابض الأواني وبتلات النباتات والأبراج المتدرجة وما شابهها. وكان ذلك مؤشراً مناسباً لحالة الجو الاجتماعي الذي تحرر إلى حد ما من النظرة المادية البحتة التي تحكم المجتمع في العاصمة الوهابية وما حولها. وقدر لنا أن نجد في شقراء أن هذه الميول قد تطورت إلى درجة أكبر، وفي القصيم كذلك وجدناها تُوجت فيما يقترب من أن يصبح مدخلاً إلى الفن المعاصر بالقدر الذي تستطيعه صحراء الجزيرة العربية.

إن رسماً كروكياً بسيطاً وبدائياً جداً لسفينة تجارية مستقلة عن التصميم الرئيس، قد يكشف ربما عن أصل الإلهام لدى مضيفنا، إذ ربما كان بالصدفة واحداً من أولئك الذين لطف بهم القدر وعملوا في مصايد اللؤلؤ.

كانت التمور الطازجة التي قُدمّت لنا لإنعاشنا من نوعين مختلفين[٢]، وتبعها صحن كبير من المراصيع المكونة من الفطائر الحلوة المغموسة في السمن والتي تنتشر فوقها شرائح البصل المقطعة بكثرة[٣]. وكان منور الذي اعتذر عن مصاحبتي إلى قمة كميت على أساس معاناته من صداع حاد، قد فاجأني وهو يأكل بنهم من الطعام اللذيذ بغض النظر عن المسير الذي أمامه تحت شمس الظهر المحرقة. في هذا الوقت، أعتقد، أن كل واحد من رفاقي كان يعاني بشكل حاد من الصداع بسبب

(١) للمزيد عن الفن المعماري في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٥٨، وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) الدخيني والمكوزي (فيلبي). ربما المقصود بالمكوزي هو (المقفزي) (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على بعض الأكلات الشعبية في بلدة مرات قديماً. انظر: الضويحي، مرات، ص ١٩٥ - ١٩٦ (ابن جريس).

رفضي أن أسير في الليل، وعلى الرغم من أنني لم أصادف أدنى شيء يزعجني أو يقض راحتي إلا أنني أستطيع أن أرجع معاناة ومتاعب العرب في هذا الخصوص بشكل جزئي إلى حقيقة أنهم ـ بقدر الإمكان ـ يتفادون عادة السفر أو السير خلال حر النهار، وبشكل جزئي إلى عدم كبح جماحهم عندما يوضع الطعام أمامهم. وكذلك إلى أنهم يرتدون كوفيتهم البيضاء[١]، وليس النوع الآخر من الكوفية المنقوشة الأشد سماكة التي أجدها دائماً حماية ناجحة من الشمس. وخلال بقائنا في شقراء قدمت لكل واحد من أتباعي كوفية حمراء قبلوها بشكر وامتنان، ولكنهم بشكل عام احتفظوا بها للأيام السعيدة والمناسبات[٢].

وبعد السير لمسافة نحو ثلاثة أميال باتجاه الشمال وصلنا الآن إلى ثرمداء، حيث وجدنا مخيم ابن سعود قد نُصب على الجانب الشرقي من المدينة وقريباً من بقايا قلعة عظيمة شيدها خورشيد باشا خلال الاحتلال التركي في منتصف القرن الماضي. وأثناء احتلال ابن الرشيد للمنطقة الوهابية، كانت ثرمداء إحدى معاقله الرئيسة، بل كانت حاميته تحتل هذه القلعة التركية. وقد أحالها إلى وضعها الحالي من الأنقاض ابن سعود لكي يجازي سكان ثرمداء على مساندتهم وقبولهم الولاء لحكم منافسه. إن الحائط الخارجي المتهدم الذي تدل عليه في نقاط فاصلة بقايا الأبراج الساقطة لم يعد مناسباً للحماية. أما داخل القلعة فقد تحول إلى مزارع للحنطة[٣].

---

(١) إن كلمة «الكوفية» نادراً ما تسمع في صحراء الجزيرة العربية، حيث تكون الكلمة المعتادة للدلالة على غطاء الرأس هي «الغترة» وفي الوشم كان من الواضح أن النوع الأبيض من الغطاء يسمى «غترة» بينما النوع الأحمر يسمى «شماغ». ويعرف منه نوعان مختلفان النوع المفضل (خارق) وسعره في ذلك الوقت ريالان، والأقل جودة يسمى (ابن نصر الله) وسعره ريال ونصف ريال (فيلبي)، والأصح في اللغة أن يطلق اسم (العمامة) على غطاء الرأس وليس الكوفية، كما ذكر فيلبي (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بعض الألبسة التي كانت تلبس قديماً في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٩٦ – ١٠٠. (ابن جريس).

(٣) عن الآثارالعمرانية في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٦٥ – ٧٧. (ابن جريس).

إن واحة ثرمداء عبارة عن قطعة مستطيلة متماسكة من النخيل طولها ميل وعرضها نصف ميل، تقع تقريباً شمال وجنوب وادي البطين[١]. وتبعد عنها رمال النفود بنحو نصف ميل في اتجاه الشرق، ومنحدر الصخور الرملية يرتفع مباشرة من حافة بساتين النخيل باتجاه الغرب. والواحة يحيطها سور به أبراج موزعة على محيط السور، والمدينة نفسها تقع داخل دائرته في جزء بارز من الواحة عند طرفه الشمالي الشرقي. والسوق المكون من خمسة عشر إلى عشرين محلاً هو المعلم الوحيد في هذه القرية المتناثرة المباني غير المنظمة وشوارعها المتعرجة. وينتمي سكانها البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة في معظمهم إلى فخذ العناقر من بني تميم، مع خليط من الزنوج وبني خضير، وعناصر أخرى متنوعة. وهناك مساحة مفتوحة تفصل المدينة عن القلعة، كما أن هناك بوابتين في السور الخارجي يؤديان إلى القلعة من جهتي الجنوب والشرق، أما المقبرة فهي تقع خارج المدينة.

توجد ست من أشجار النخيل المعزولة عن الجسم الرئيس للواحة تحت حافة النفود، ويتناثر في الوادي قليل من القصور المعزولة والآبار، وكثير من هذه الأخيرة مجرد أنقاض في وسط مزارع الحنطة. والماء الذي يوجد على عمق يتراوح من ست إلى ثماني قامات، وهو مالح قليلاً.

والأمير المحلي، عبد الرحمن العنقري، يجمع إلى وظائفه التنفيذية المهام الخاصة بشيخ الأئمة[٢]، وينظر إليه ابن سعود باحترام وتقدير كبير. كان من بين زوار ابن سعود في مخيمه هنا أخو أمير عنيزة الذي جاء كل هذه المسافة ليرحب به، وهو قد فاجأني بإرسال رسالة لي عن طريق رشيد تقول: على الرغم من أنه لا يستطيع أن يتحمل أن يُرى وهو يزورني إلا أنه سيكون شاكراً لقليل من السجائر !!!

(١) وادي البطين: ربما كان ضمن أودية صغار تسمى جميعها (البويطنات)، انظر: الضويحي، مرات ص ١٩. (ابن جريس).

(٢) شيخ الأئمة: ربما مسؤولية دينية كإمامة الناس في الصلوات، والفصل بينهم في الخصومات. (ابن جريس).

وقد كظمت ردة الفعل الأولى من الامتعاض والغيظ من وقاحة هذا الطلب، وأرسلت له علبة من السجائر على أمل ـ سيتحقق بما يفوق كل توقعاتي ـ أن يرد لي ثمنها بكرم الضيافة في عنيزة.

على بُعد أميال قليلة باتجاه الشمال من ثرمداء في وادي البطين تقع مجموعة من المزارع[١] ومبانيها، والتي مع مجموعة أخرى مماثلة بعيدة مقابل شقراء، تعرف باسم قصور السنيدي. ونحو المجموعة الأولى يمتد أحد الأودية نازلاً من القمة الغربية لقفر الصخور الرملية مثلثة الشكل والذي أشرت إليه سابقاً ذلك هو وادي شعيب مصمّه الذي تقع فيه واحة وقرية أثيثية. وكانت هذه أول مرحلة من سيرنا عندما غادرنا ثرمداء في صباح الحادي عشر من أغسطس، وكان اتجاهنا العام قليلاً نحو الشمال من الغرب، والمسافة التي قطعناها بلغت حوالي ستة أميال. وكان هناك دربٌ واضح المعالم سرنا فيه من الطرف الشمالي للواحة وتدريجياً فوق المنحدر الأرضي حتى قمته بعد منخفض ضحل يسمى أبا السلم[٢] ومن هنا وعبر المنخفض نظرنا أمامنا إلى خط من التلال الصغيرة ذات القمم المسطحة المرتبة مثل سلسلة من الحصون تغطي المدخل إلى الوثيثية من جهة الشرق، وهو الاتجاه الذي يوجد فيه حاكمها في العصور السابقة ومنافسه الحالي.

فمنذ قرن ونصف قرن كان سكان القرية يدفعون جزية لثرمداء على هيئة حمولة بعير كل يوم جمعة، وهو يوم الذبيح الأسبوعي في ذلك الوقت، ولا يزال كذلك في معظم قرى الجزيرة العربية. وهكذا كل يوم جمعة كان تحالف المدينة المتسلطة يرسل عبداً ومعه حمار ليعود بالجزية من الموالين لها، وكان العبد يعود فعلاً ومعه اللحم. بيد أنه في ذلك الأوان نهض رجلٌ، لم يعد اسمه محفوظاً، ليثير

(١) تشمل هذه المجموعة نحو ثلاثين قصراً بالقرب من حافة النفودَ. (فيلبي).

(٢) يصرف هذا الوادي المياه حتى قصور السنيدي وروضة أبا السميري للوراء منها. (فيلبي). ويوجد في منطقة ثرمداء ضمن بلاد مرات مكان يسمى خشوم السميرة. انظر: الضويحي، مرات، ص ١٨. (ابن جريس).

التمرد سراً، وفي الجمعة التالية عاد الحمار إلى ثرمداء بمفرده وعليه حمولته من اللحم. كان هذا اللحم هو جثة العبد التي شُقتّ إلى قطعتين ووضعت في الخُرج. والحملة التي نُظّمت للانتقام من هذه الإهانة قوبلت بمواجهة شرسة بين التلال الصغيرة التي تواجهنا الآن حيث تكبدت قوات ثرمداء خسائر فادحة. وهكذا نالت قرية أثيثية استقلالها وهي الآن بالطبع قد دخلت في الطاعة العامة لآل سعود. وقد صُورّت هذه الحادثة في ملحمة شعرية ألّفها في ذلك الوقت شاعر قبلي يسمى حميدان[١]، الذي يعجب به أحفاد أقرانه من المواطنين باحترام ويطلقون عليه «أستاذ كل العلوم»[٢]. وقد ألقيت القصيدة ونالت تقديراً واضحاً من كافة الحاضرين. عندما كنا نجلس متحلقين نرشف القهوة في بيت الأمير المحلي ذلك اليوم. وكان الشاعر المحلي في كل بيت من أبيات القصيدة يصف القصة، وأحياناً يستهل بيتاً بملاحظات مثل «لقد نسيت كيف يمضي هذا البيت»، «وماذا بعد ذلك؟» بينما الحاضرون يستبقونه بصورة جماعية بالهمس بآخر نغمة من كل مقطع. في مثل هذه الأوقات كان المرء يستطيع أن يشعر دائماً بالماضي العظيم لأمة العرب، في الأوقات التي كان زبدُ الثرثرة الدينية الجديدة يذهب منسياً في خضم الأحداث المثيرة من الجاهلية البدائية الأولى، التي أبدعت أدباً يستحق أن يكون في مصاف الإبداعات العظمى للإنسانية[٣]. وأعترف أنني كنت دائماً أواجه صعوبة في متابعة إلقاء هذه القصائد، ولكن ثراء اللغة واللمحات الأدبية أو التاريخية كانت دقيقة، حتى إن المرء لا يستطيع أن يتتبع المعنى إلا بعد جهد جهيد، ناهيك عن القدرة على

(١) هذا الشاعر يسمى (حميدان الشويعر). (ابن جريس).

(٢) أستاذ كل العلوم: أي عالم بكل العلوم (فيلبي + ابن جريس).

(٣) فيلبي يدرك تماماً أن العرب أصحاب تراث وفكر وحضارة، وهذا هو الواقع، لكن إطلاق لفظ (الثرثرة الدينية الجديدة) في شروحاته غير مقبولة، لأنه إذا كان يقصد ما جاء به الشيخ محمد بن عبدالوهاب من صحوة وتوعية للناس فهذا لا يعتبر ثرثرة، كما يدعي، وإنما هو إعادة الأمور إلى نصابها وتوجيه الناس إلى الطريق التي سلكها الرسول ﷺ وصحابته في فهم الدين وتطبيقه. (ابن جريس).

تقدير جمال الأبيات، إلا بصورة عمومية شديدة. وخلال رحلاتي لم يُتح لي أبداً وقتٌ لبذل هذا المجهود الضروري. وعلى الرغم من ذلك هناك كثرة طاغية من العرب الذين يملكون ذخيرة هائلة من الأغاني والقصائد[١]، ولكن السابقة ـ للأسف ـ قد دُمّرت دائماً بالأداء اللعين لأصواتهم الفظة المتنافرة.

يقع حول التلال الصغيرة ذات القمم المسطحة عدد من بساتين النخيل المعزولة المسوّرة ومنطقة شاسعة من حقول الحنطة المرصعة بالآبار. وعلى بُعد نصف ميل بعد ذلك في جهة الشمال توجد الكتلة الرئيسة للواحة منفرجة الساقين في مجرى سيل شعيب مصمة، وعبر هذا السيل يُؤتى بالماء من بساتين النخيل الشمالية إلى الجنوبية على طول قناة ترابية ترتفع لحوالي أربعة أقدام فوق قاع الوادي على أعمدة مبنية. وبعد الواحة يمتد الخط المظلم لجبل الفروغ الذي يرتفع إلى أن يصبح رأساً أرضياً بارزاً على بُعد عدة أميال نحو الشمال الغربي.

إن كل الأجزاء الرئيسة للواحة وقليل من البساتين المعزولة القريبة خارجها محاطة بأسوار طينية صلبة ارتفاعها عشرة أقدام تقريباً وتعلوها أبراج. والقرية نفسها تقع في الركن الشمالي الشرقي من الواحة، وهي فاتنة على نحو استثنائي. فعلى المدخل الوحيد للقرية الذي يزيد سورها الدائري المتعرج من جماله ينتصب برجٌ طويلٌ للحراسة، بينما في الداخل تسمو مئذنة المسجد طولاً فوق السور، ويستدق طرفها بشكل رائع. وتتجاور الطوابق العليا من البيوت مع بعضها لتشكل كتلة متماسكة تمتد تحتها الشوارع المغطاة وغرف الطابق الأرضي التي طبقاً للعادة الشائعة على نطاق واسع في الوشم تحتل منزلة دنيا وتكون مخصصة بصورة حصرية تقريباً لمواشي أهل البيت، الأغنام والماعز، عندما تعود للمنزل كل مساء من

(١) إن الفنون الشعبية بما يصاحبها من قصائد وأهازيج وأشعار نبطية جديرة بالدراسة، لما تحتوي عليه من معلومات ومعارف سياسية وحضارية مختلفة. وإنني أنادي الأقسام العلمية في بلادنا إلى أن تولي هذا الجانب العلمي والأدبي نوعاً من الاهتمام. (ابن جريس).

المراعي[١]. وهنا يطيب لي أن أذكر ولو لمرة واحدة أن صوف خراف الوشم يتكون من اللونين الأبيض والأسود، ولا يطغى أحدهما على الآخر بشكل ملحوظ.

عندما أنخنا الإبل في الفناء المفتوح داخل البوابة مباشرة فقد سعينا إلى ضيافة الأمير عبد العزيز بن سعد من فخذ سعد من بني تميم، وهو مع فخذ الزامل من القبيلة نفسها يشكلون سكان القرية ومجموعهم (٦٠٠) نسمة. كان الأمير غائباً في بساتينه عندما وصلنا، ولكنه سرعان ما جاء ليرحب بنا، في حين جاء القرويون واحداً تلو الآخر على أصوات دقات المدق والهاون. لم تكن الغرفة ـ في الطابق العلوي بالطبع ـ ذات أبعاد كبيرة، وكانت جدرانها مُليّسة بالجير ومظهرها رمادي مع رسم نمط شبكي باهت. وكان السقف مدعوماً بعمودين ينتهي كل واحد منهما بتاج، في حين كانت مساكن النساء معزولة عن غرفة الضيوف بباب من خشب الأثل وجدار شبكي من الطين فيه فتحات تهوية مثلثة، والتي منها يمكن أن ترى كثيرٌ من العيون وهي تختلس النظر إلى القادمين الجدد من الضيوف. داخل باب غرف النساء، الذي كان مفتوحاً عند وصولنا، تنتصب ستارة طينية ثابتة لتضمن السرية والخصوصية الضرورية لأهل البيت بالداخل. كان تناول القهوة والتمر والبخور بعدهما قد عجّل بانطلاقنا لمواصلة طريقنا، ووجدنا عند وصولنا إلى إبلنا أن احتياجاتها لم تغفل هي الأخرى، فقد كانت سيقان الدخن الخضراء من نصيبها.

وبعد سير لميلين فوق الأرض الصخرية الوعرة وصلنا إلى أرض الفروغ غير المستوية، حيث وجدنا أنفسنا في إحدى زوايا مثلث متساوي الساقين، جانبه الأبعد كان جبل قرين ورأسه نحو الشمال الغربي تقريباً منا. وتقع قاعدة المثلث بين الرأسين القائمين تقريباً على طول قمة المنحدر، بينما عند رأس المثلث تقع واحة

(١) هكذا كان السائد عند عموم سكان القرى في الجزيرة العربية، إنهم يخصصون الأدوار السفلية في منازلهم إذا كانت مكونة من أكثر من طابق لسكن الأغنام وعموم البهائم وتخزين أعلافها. (ابن جريس).

القرائن. ولما نزلنا المنحدر نحو الواحة التزمنا السير عبر القاع الصخري لشعيب محرقة، وبعد أربعة أميال من أرض الفروغ المرتفعة وصلنا الحافة الشمالية لواحة القرائن. وهي تمتد في الوادي باتجاه جنوب شرق لمسافة ميلين تقريباً، ويبلغ متوسط عرضها ربع ميل. وتحتوي الكتلة الرئيسة للواحة ـ في الطرف الشمالي ـ على قريتين صغيرتين على بُعد نصف ميل من بعضهما وهما : الوقف[١] وهي قرية طويلة ضيقة ومتناثرة على الشفة اليسرى من المجرى الصخري لشعيب العنبري دون سور إلا حافة البيوت الممتدة. والثانية، الغُسلة[٢] هي أيضاً مجموعة متناثرة غير مسورة من المساكن وأمامها مساحة كبيرة مفتوحة. وتحتوي هذه القرية الأخيرة بالكاد على ما يزيد عن (٢٠٠) نسمة، معظمهم من أصل العناقر، وشيخهم يدعى عبد الله بن سلوم، في حين كانت الوقف أكبر نسبياً وتضم حوالي (٣٠٠) نسمة، من فخذ الوهبة من بني تميم[٣] يعيشون تحت توجيه عبد الرحمن الصالح. وشوارع هذه القرية مثل شوارع وثيثية، تشبه الجحور تحت الكتلة الصلبة للطوابق العليا، أما مسجدها فهو صرحٌ ضخمٌ مثل قلعة قوية البناء بما فيه من ساحة ذات أعمدة ومئذنة شاهقة.

إنني في الحقيقة لم أزر هذه الواحة إلا بعد بضعة أيام من زيارتي شقراء، التي يفصلها عنها جبلٌ عريض من مرتفعات الصخور الرملية. كانت الغرفة التي استضافنا فيها الأمير لتناول القهوة صغيرة، وكئيبة، ومثيرة للاشمئزاز بسبب الدخان، ولكن كان بها صفة غير اعتيادية، تلك هي وجود سلسلة من النوافذ الصغيرة تفتح على بساتين النخيل خلفها، وكل نافذة منها مجهزة بضُلف خشبية

(١) نحو ٥٠٠ × ٥٠ ياردة. (فيلبي).

(٢) الغسلة: ربما يطلق عليها أيضاً (ذات غسل)، انظر: محمد العمار. شقراء، ص ٤٨. (ابن جريس).

(٣) ويوجد كذلك بعض الأسر من سبيع (فيلبي). وللمزيد من التفصيلات عن قبائل بني تميم وسبيع، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٠، ١٥٥. (ابن جريس).

تلتف عند فتحها على محور بأداة بسيطة ولكنها مبتكرة. وعندما ركبنا راحلين رأيت امرأة شابة من القرية ذات وجه مثل القمر، وخصلات شعر مضفرة وهي تحدق فينا من فوق خلال نافذتها العلوية.

إن جزءاً ما من الواحة مطوق بحزام من السور المتهدم، والبساتين الخارجية في أسفل الوادي باتجاه بطين في معظم أجزائها متناثرة وغير مزدهرة. وبالإضافة إلى النخيل يوجد عدد مقدر من شجر الأثل، وعند طرف القرية كان هناك بئرٌ صافية ذات بناء صخري من غير مونة يحفه الرمل، وأبعاده (١٠ × ٣) ياردة. وبعد حوالي ميل مع اتجاه مجرى التيار من هذه النقطة نحو الشمال الشرقي تقع المجموعة الثانية من مزارع قصور سنيدي حوالي عشرة في مجموعها. وتقع شقراء على بعد ميلين تقريباً من هذه النقطة في أعلى واديها، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقريباً من الطرف الغربي لواحة القرائن وراء مرتفع يصل بين قمتين من جبل ذي صخور رملية في اتجاه الشمال الغربي[١].

كان النهار قد انتصف عندما دخلنا راكبين مخيم ابن سعود المتناثر فوق الوادي إلى الشرق من بوابة المدينة الرئيسة، وإقامتنا المؤقتة في شقراء قد دامت لمدة ستة أيام تقريباً، كانت هذه الفترة تمثل أول مرحلة واضحة المعالم في تطور الحملة العسكرية على حائل منذ أن انطلقت نواة جيش ابن سعود من الرياض. وبناءً على ذلك قد يكون من الملائم أن نتوقف عند هذه النقطة من قصتي لنقوم بمسح مختصر للموقف السياسي والعسكري بقدر ما يؤثر ذلك على ابن سعود وخططه المستقبلية.

كان الأفق على كلا جانبي الجزيرة العربية بالفعل غائماً بالسحب الرعدية في بداية أغسطس عندما غادر ابن سعود الرياض ليفي بوعده بشن حملة عسكرية ضد ابن الرشيد، ولقد نالت هذه الحملة التأييد التام والمساندة الفاعلة من الحكومة

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة شقراء، انظر: محمد العمار، شقراء، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

البريطانية، ليس أملاً ـ ربما ـ في تحقيق أية نتائج مدهشة منها، ولكن بسبب رغبتها في تحويل انتباه العاهل الوهابي عن حدوده الغربية والشرقية[١].

من الحدود الغربية كانت تأتي من حين إلى آخر إشاعات سيئة تنذر باستعدادات الشريف للهجوم مجدداً على الخرمة؛ حيث هُزمت قوات الحجاز قبل ذلك مرتين بشكل حاسم[٢]. وفي الشرق يقبع العدو التقليدي، قبيلة العجمان التي تتمركز على حدود العراق والكويت، حيث هربت إلى هناك بحثاً عن ملاذ من غضب ابن سعود.

إن حائل بصفتها حليفاً للأتراك كانت العدو المشترك، ولكنها ليست على وجه التحديد العدو البغيض لابن سعود، الذي كان يأمل ـ وهذه حقيقة ـ في ضمها إلى سلطانه ودولته يوماً ما، ولكنه كان قانعاً بانتظار الفرصة الملائمة. ولقد كان من المشهور عنه أن يفضّل بدلاً عن ذلك السير بحملة ضد العجمان ليثأر لنفسه عن موت أخيه سعد، كما أنهم في الآونة الأخيرة فعلاً قد أثاروا فيه انفجاراً جديداً من الغضب بهجومهم على مخيم سبيع في الأحساء[٣]، وكان يُفضل أيضاً أن يزحف ضد الشريف ليسحق ذرائعه وطموحاته قبل أن تنضج[٤]. وفي كلا الاتجاهين ـ على الرغم من ذلك، كان طريقه مسدوداً من السلطات البريطانية، التي بسبب تحريضها يزحف الآن إلى الشمال، سعياً للتنفيس عن طاقاته وانفعالاته التي طال كبتها.

وكان القائد والحاكم[٥] التركي لعسير ـ الذي لا تزال حاميته ـ وهذا قد يبدو

---

(١) موقف بريطانيا من مسير ابن سعود إلى حائل عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) كانت إيجابية، وذلك بهدف إشغاله من التوجه نحو الأشراف في الحجاز، أو نحو أجزاء أخرى من الخليج العربي. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الصراعات بين الأشراف وأهل الخرمة ورنية وتربة، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ٢٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين ابن سعود والعجمان، انظر: السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ١٨٥ وما بعدها، الخترش، ص ٩٢، جمال زكريا، ص ٥٠، خزعل، جـ٤، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في الحجاز، انظر: العثيمين، جـ٢، ص ١٨٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٥) محي الدين باشا (فيلبي) وللمزيد عن نفوذ الأتراك في عسير وما حولها، انظر: ابن جريس، صفحات جـ١ + ٢، ص ٩١ – ١٢٠، ٢٣٥ – ٢٧٤.

غريباً ـ صامدة بعد ما يقرب من أربعة سنين من الحرب وتحتفظ حتى باتصالاتها مع القيادة العامة في القسطنطينية، لم يضيع وقتاً طويلاً في محاولة جني فوائد من مشكلة الخرمة، وقد أثيرت قبائل بيشة وتثليث لتهب لنجدة إخوانهم في العقيدة، قبيلة سبيع، وفي هذا الوقت تلقى ابن سعود رسالة حررها بوضوح أحد الكتبة من موظفي الحاكم، ولكنها موقعة أو مختومة من قبل أربعة شيوخ ممثلين لقبائل عسير[١]، كانت الرسالة توضح بجلاء الولاء الأبدي من موقعيها للإمبراطورية العثمانية ـ التي كانت عسير، تحت حكمها تتعم بالهدوء والازدهار[٢]. إن تدمير الإسلام ـ كما قالت الرسالة، كان هدف الحلفاء، وكان من الواجب الصريح على ابن سعود أن يساعد في الدفاع عن العقيدة الصحيحة. ولقد اعتبرت هذه الرسالة ذات أهمية عظيمة مما يوجب تقديمها إلى الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، الإمام الأكبر، الذي كان ينغمس في بعض النقد الصريح لسياسة ابن سعود. وقال: إما أن يكون البريطانيون ضعفاء وبلا قوة لكبح أهواء الشريف والعجمان أو أنهم يستطيعون ولا يفعلون، وفي الحالتين كان من واجب ابن سعود أن يتخذ إجراءاته الخاصة لمنع انتهاك حدوده. بيد أن ابن سعود كان شديد الحكمة في جيله بحيث إنه لا يمكن أن يركب مخاطر سياسة يتبناها العامة من الناس.

كانت المدينة في ذلك الوقت لا تزال تخضع لحصارٍ متقطع من الأمير علي[٣]، الابن الأكبر للشريف حسين، وكان ابن ذويبي، وهو أحد الشيوخ الكبار في قبيلة حرب، قد جاء مؤخراً من هذه المنطقة ومعه أحدث الأخبار والإشاعات. فقد سمع إطلاق سبع وأربعين طلقة مدفعية لتحية السلطان التركي، محمد رشاد، الذي توفي

(١) ذكر فيلبي في الحاشية أسماء بعض القبائل العسيرية مثل: قحطان وشهران (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن التقسيمات القبلية لمنطقة عسير التي عاصمتها أبها، انظر: غيثان بن علي بن جريس. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ١٤ وما بعدها، الحقيل، كنز، ص ٢٦٣ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) تولى عرش الحجاز في أكتوبر (١٩٢٤م) عندما تنازل له والده. وتنازل هو نفسه في ديسمبر (١٩٢٥م) عندما استولى ابن سعود على الحجاز. (فيلبي). للمزيد انظر: السباعي، تاريخ مكة، جـ٢ ص ٦٢٤ وما بعدها (ابن جريس).

مؤخراً، وحضر الصلاة التي أقيمت على روحه. وكانت القطارات، كما قال، تسير بصورة منتظمة بين المدينة وتبوك، كما كانت القوات تجد إمداداً جيداً بالمؤن. وعلى الرغم من ذلك أرسل الأمير علي رسالة إلى المهيب فخري باشا يدعوه فيها إلى الاستسلام بضمان المعاملة المحترمة من الملك. وقد تم إملاء الرد في مجلس عام كما يلي: «أيها الرجل المجنون (علي) ألا تعلم أنني موظف في الدولة ولي الشرفُ السامي؟ لماذا إذن يجب عليَّ أن أسلم ما توليت أمانة المسؤولية عنه؟ ولكنك، يا من تدعي أنك من أحفاد الرسول، الذي يوجد قبره تحت ولايتي، لماذا لا تأتي إلينا وتقاتل، واثقاً من قوة أسلافك في مساعدتك؟»[١].

وكان ابن الرشيد، الذي اضطر بصورة عملية إلى قضاء مدة طويلة خلال الصيف مع القوة التركية في الحجر على خط سكك حديد الحجاز، قد عاد الآن إلى حائل، والرسائل التي اعترضناها والموجهة منه إلى الأتراك أظهرت دلائل واضحة على تزايد النفور بين الأتراك وحليفهم العربي الوحيد. وكان الأمير عبدالله[٢]، الذي قيل في ذلك الوقت: إنه كان في العشيرة مع جيش الشريف المتجه إلى تجديد الهجوم على الخرمة، استغل هذا الوضع وأرسل إلى ابن الرشيد عرضاً للسلام والصداقة. وكان ابن سعود قد فسّر بالطبع هذا العمل على أنه يُقصد به العداء تجاهه، وفي نفس يوم مغادرته الرياض كان هذا التفسير قد تأكد بصورة كافية من محتويات الخطابات الموجهة من الأمير عبدالله إلى اثنين من شيوخ عتيبة، وهما ضاوي بن فهيد وهذال بن هذال اللذين قدما الخطابات إلى ابن سعود. وقد أوضحت هذه الخطابات اتفاق السلام بين الشريف وابن الرشيد، واجتماعاً وشيكاً بين الطرفين «لتسوية أوضاع الشمال والجنوب»، وتعيين عبد الله نفسه قائداً لحملة على الخرمة وحشد الأخير جيشه في مران. ولم تخل من تلميحات هجومية على

(١) مثل هذا القول يجب أن لا يستخدم، وبخاصة عند الحديث عن الرسول ﷺ وأهل بيته. (ابن جريس).

(٢) أصبح أميراً على الأردن في أبريل عام (١٩٢١م). (ابن جريس).

ابن سعود، واختتمت بتوجيهات لعتيبة بأن تحتشد حول راية الشريف دون تأخير. ولكي تزداد الأمور سوءاً وصل عملاء عبدالله في القصيم لشراء إبل للحملة العسكرية المتوقع، وسرعان ما صُرفوا عن أداء مهمتهم[١].

كان هذا هو الموقف عند بداية الحملة على حائل، موقفاً عادياً مضطرباً كما قد يبدو لأي مراقب مستقل لا يهتم اهتماماً حيوياً بالأمور الآنية التي ينطوي عليها، بالنسبة لي ـ في موقعي وسط الجزيرة العربية على مسافة مسير لإثني عشر إلى خمسة عشرة يوماً من أي مصدر من مصادر المعلومات الدقيقة ـ والمكلف بمهمة منع ابن سعود من مهاجمة أي من جيرانه تحديداً الشريف، والعجمان والكويت، الذين كانوا في تحالف معنا، وإغرائه بمهاجمة شمر المعادية. كان الموقف خطيراً بما فيه الكفاية؛ فعلى الجانب الشرقي كان شيخ الكويت، المعادي دائماً لابن سعود، والعجمان، ناهيك عن ضاري بن طوالة يتسترون أو يتغاضون عن إمداد المؤن والضروريات الأخرى إلى حائل، التي خرجت منها قافلة مؤخراً إلى دمشق[٢].

وفي الاتجاه نفسه لم يضيع العجمان أي فرصة معقولة للهجوم على إقليم ابن سعود، وفي الغرب كان الأمير عبدالله يتفاوض على معاهدة سلام وصداقة مع ابن الرشيد، بينما إخوانه يواصلون بقوة الحرب ضد حليف الأخير، الأتراك[٣]. وعلاوة

(١) للاطلاع على الصراع بين ابن سعود والشريف حتى تغلب الأول على الأخير، انظر العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٠ وما بعدها، السباعي، تاريخ مكة، جـ٢، ص ٦٢٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) فما يظهر أن ابن سعود كان في موقف حرج جداً، لأن هناك أكثر من عدو يتربص به الدوائر. وبريطانيا تدفعه إلى ابن الرشيد في حائل وهو ربما أقل خطورة من الأشراف في الحجاز، والعجمان في شرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: فيلبي العربية السعودية، ص ٥١٥ وما بعدها، آر. اي. تشيزمان، ص ٦٥ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٦١ وما بعدها، السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، هي ٣٥ وما بعدها، غيثان بن علي بن جريس، عسير في عصر الملك عبدالعزيز (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

على ذلك، كان على حد زعمه يتخذ جميع الاستعدادات للهجوم على نجد، والأسلحة والذخيرة المستخدمة لهذا الغرض يوردها البريطانيون[١].

من هذه اللحظة فصاعداً كانت كل رسالة آتية من الساحل تفحص بلهفة بحثاً عن أخبار التطورات الأخيرة، وكان مقياس الضغط (البارومتر) السياسي يتذبذب بعنف من يوم إلى يوم تقريباً؛ فالآن يعطينا بصيصاً من أمل، ومرة أخرى يُغرقنا في أعماق اليأس، وباستثناء الأمير فيصل[٢]، الذي كان منهمكاً بشدة في مواصلة الحرب ضد الأتراك في الشمال، كان أصدقاؤنا وحلفاؤنا العرب، كلهم عن بكرة أبيهم، قد نسوا أنهم ليسوا إلا نماذج صغيرة في لعبة الحرب العظمى، وبدؤوا يتزاحمون بالمناكب ابتغاء مزايا ضئيلة خلال الاضطراب العام في جزيرتهم[٣]. وهم قد بدؤوا يخرجون عن السيطرة، وهنا لم تكن هناك حاجة إلا الشيء اليسير حتى تقع حرب صريحة بين ابن سعود والشريف، ولحسن الحظ تدخلت حكومة صاحب الجلالة في الوقت المناسب بتوجيه تحذير جاد لكل من الشريف وابن سعود بأن بداية أي تحرك يُعد على أنه خرق للسلام بينهما، وسوف يُقابل بقسوة من طرفهم. وكان هذا التحذير مصحوباً بعرض معقول للتوسط، فور أن تضع الحرب العظمى أوزارها، في جميع النقاط محل النزاع بين الطرفين. وقد قبل ابن سعود هذا الإجراء للتدخل بكل حماس، ولم يبق إلا أن يسحب الشريف ولده، عبدالله، بعيداً عن مدى نشوب المخاطر[٤]. وستكون الخطوة الثانية تحديد خط مؤقت للحدود بين

(١) ليس لهذا الغرض بالطبع. (فيلبي).

(٢) ملك سوريا (١٩١٩ - ١٩٢٠م)، والعراق منذ أغسطس (١٩٢١م) (فيلبي).

(٣) فعلاً هكذا كان الوضع السياسي في الجزيرة العربية، ولكن الملك عبدالعزيز كان على درجة عالية من الحنكة والذكاء، بعد توفيق الله عز وجل يوحد كيان دولته بأسلوب دبلوماسي ذكي بارع. (ابن جريس).

(٤) وهذه التهدئة من بريطانيا لكل من ابن سعود والشريف كانت في صالح الأول، حيث حصل على الوقت الكافي لاستكمال مهامه العسكرية السياسية. (ابن جريس).

المنطقتين، واقترحت أن يمتد الخط[١] دون الإخلال بالتسوية التي سوف تُنفذ بعد الحرب شرق مرّان وتربة، ونترك هذين الموقعين وكل شيء غرب الخط للحجاز، والخرمة وكل شيء شرق الخط لابن سعود[٢].

وقد تلقيت هذه الرسالة في معسكرنا بالحش، ولبرهة أشار مقياس الضغط (البارومتر) إلى بدء فترة من استقرار الظروف. وبعد أيام من الصراع مع نفسه كان ابن سعود قد أكد بصورة قاطعة أوامره لحشد قوات في شقراء، وكل يوم من أيام إقامتنا المؤقتة في عاصمة الوشم كان يتميز بوصول أحد العناصر العسكرية أو غيرها من مكان قريب أو بعيد. وفي الوقت نفسه استطاع عملاء استخبارات ابن سعود أن يُبلّغوا عن فشل جهود عبد الله في تجنيد عناصر بدوية للهجوم على الخرمة، وبينما كان الكل مقتنعاً بأن فرص نجاح السلام المقدم لابن الرشيد من المنطقة نفسها قليلة، فقد كان هناك شيء واحد فقط مطلوبٌ لخلق الحماس لشن الحملة العسكرية على حائل، ذلك هو حقيقة أن الشريف كان يضغط كل حواسه ليكسب ابن الرشيد إلى صفه.

وتبعاً لذلك، وفي الخامس عشر من أغسطس، اجتمع ابن سعود مع جيشه المحتشد ليشرح سياسته وخطته للحملة العسكرية. وكان فيصل الدويش[١] ـ قائد فرقة الأرطاوية العسكري ـ يعمل كمتحدث رسمي نيابة عن الفرق العسكرية الوهابية كلها. ونشب جدالٌ علنيٌ على القضية بينه وبين مليكه أمام الجموع المحتشدة. وقال فيصل علانية: إنه لم يحدث أي شيء فيما يتعلق بمساعدة إخوانهم

(١) هذا الخط يمثل الموقف الحقيقي لكلا المتنافسين المتنازعين في هذا الوقت، فمثلاً كانت تربة تحت سيطرة الشريف بينما كانت الخرمة في أيدي الوهابيين. (فيلبي).

(٢) كانت مناطق تربة ورثية والخرمة من المناطق الحساسة في الصراعات بين ابن سعود والشريف. للمزيد انظر، السبيعي، الخرمة، ص ٢٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع أكثر عن شخصية فيصل الدويش وقدراته السياسية والعسكرية، انظر: الزركلي. الأعلام، جـ٥، ص ١٦٦ - ١٦٧. (ابن جريس).

في الخرمة المهددين بهجوم آخر من قوات الشريف، كما لم يجر أي شيء لمواجهة أنشطة العجمان في الشرق. وواصل قوله: «كل ما نريده أن يُسمح لنا بالهجوم على أعداء العقيدة، لا تعطنا إلا كلمة وسوف نتبعك حتى الموت ضد الشريف أو العجمان». لقد كان من الواضح أن هناك بعض القلق في عقول الإخوان خشية أن يكون هذا المشروع للحملة العسكرية ضد شمر، وهم وهابيون مثلهم، ليس إلا نتيجة المقايضة مع الكفار، ويهدف إلى خدمة بعض الأهداف السياسية المبهمة التي لا يتعاطفون معها. وكان كل ما يستطيعون رؤيته هو الخطر الذي يهدد إخوانهم من مصادر معروف أنها مدعومة بالنفوذ أو بالأموال البريطانية، وكانوا غاضبين من فكرة أنهم ربما قد يسلموا أنفسهم لخدمة قضية ليست قضيتهم[١].

كانت طريقة ابن سعود في مقارعة حجج أتباعه متميزة، فقال: «انظر أنت يا، أيها الناس أنتم جيشي؛ لأنه ليس لي جيش إلا ربي وأنتم. وفي أيام جاهليتكم، عندما لم تكونوا إلا لصوصاً وقطاع طرق كنتم جيشي، والآن وقد أصبحتم في خدمة الدين واستقر بكم المقام في القرى والهجر فما زلتم جيشي الذي أعتمد عليه. لا تظنون أنني غافل عما هو ضروري، وبالنسبة للشريف لا تفكروا فيه بعد اليوم. إما أن الإنجليز سوف يوقفوه عن مهاجمة الخرمة مرة أخرى أو ـ وأعطيكم عهدي بذلك ـ سوف أسير زاحفاً ضده، ولكن تذكروا أن هذا ليس من شأنكم. كل ما أحتاج إليه هو أن أرسل أحد أفراد أسرتي والجنوب كله سوف يثور ضد الشريف[٢]. وبالنسبة لشمر[٣] والعجمان، أنتم لا تدرون ما تتحدثون عنه عندما تقولون أن

(١) كان فيصل الدويش يتكلم أمام سيده بما يخافون منه، وهو الشريف في الحجاز، والعجمان في الشرق. ولكن عبقرية الملك عبدالعزيز جعلته يدرس جميع الأمور، ويسمع لكل الآراء، ثم يتخذ السياسة المناسبة، وهي غزو بلاد شمر، وبخاصة آل رشيد في حائل. (ابن جريس).

(٢) إن الجنوب، وبخاصة أهالي منطقة عسير، كان فيهم أعداد كثيرة سوف يتعاطفون مع ابن سعود، كما كان متوقعاً، لأن أسلافهم كانوا متعاونين متعاطفين مع أجداده خلال الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. للمزيد انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٥، ١٧٣ وما بعدها.

(٣) أتباع ضاري بن طوالة الذي كان يساند العجمان (فيلبي).

الإنجليز يدعمونهم. لماذا؟ يقول الإنجليز لي: أنتم حمقى جداً، وهم محقون في ذلك، لأنني عندي الوسائل التي بها أضرب شمر في القلب ومع ذلك أتوانى. على أي أساس سوف يبقى ضاري والعجمان إذا استوليت على حائل؟ إذا استطعت فقط أن أجعل نفسي حاكماً على عاصمة شمر فسوف يترك لي الإنجليز قبائل الصحراء كلها لأحكمها، وسوف لن تكون هناك أي قلاقل أخرى من أولئك الذين يجلسون على حدود أرضنا»[1].

عند ذلك كشف العاهل الوهابي خططه للحملة العسكرية الدائمة ضد ابن الرشيد، وبعدما ألقى أوراقه مكشوفة على الطاولة هكذا دعا كبير علماء الوشم، محمد بن عبدالوهاب، أخ الشيخ عبدالله، والعلماء الآخرين الحاضرين إلى إعلان آرائهم فيمن يكون العدو الحقيقي في الوقت الحالي. وبصوت واحد أكدوا للجموع المحتشدة أنه ليس إلا ابن الرشيد العدو الرئيس، والإخوان كعادتهم عندما يكونون تحت ضغط الانفعالات العاطفية، انكبوا يبكون ويعلنون من بين دموعهم أنهم لو نالوا ثقة سيدهم قبل هذه اللحظة لجاؤوا جميعاً على قلب رجل واحد دون أي تردد.

عند هذه النقطة كان ابن سعود، بعدما رضي تماماً عن نجاح خطبته، قد أنهى هذه المشاورات بتعليمات محددة لتوجيه أتباعه. وكانت خطته للحملة العسكرية قد نضجت الآن، وسوف ينطلق في الحقيقة إلى حائل من القصيم في اليوم الخامس من ذي الحجة، أي بعد قضاء شهر كامل تقريباً هناك. ثم قال لهم: «اذهبوا الآن، كل رجل إلى بيته، واستعدوا للحرب، وبعد أن ترتبوا شؤون بيوتكم إلحقوني في بريدة

(١) ما يذكر الملك عبدالعزيز هو استقراء لمستقبله السياسي، لأن هذا بالفعل ما حصل، فبعد أن سيطر على بلاد حائل استطاع أن يوحد البلاد السعودية تحت راية واحدة، هي المملكة العربية السعودية. انظر: العثيمين، تاريخ، ص ٨١ وما بعدها، إيف بيسون. ابن سعود ملك الصحراء (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٩ وما بعدها، سيف الدين حسين شاهين. لمحات تاريخية عن توحيد المملكة العربية السعودية، (الرياض: دار الشبل، د.ت)، ص ٤٣ وما بعدها. (ابن جريس).

في الشهر الجديد، والله، برحمته، سوف يهبنا النصر. ولكن أذكركم بأنني لا أريد رداً فاتراً على دعوتي، فلترسل كل قرية وهجرة نصيبها كاملاً مستعداً لنضال طويل وشاق[١]. سوف أقدم لكم الطعام والسلاح، وإن شاء الله سوف نرهق ابن الرشيد وأهله بغارات متكررة إلى أن يسلموا معقلهم»[٢].

وهكذا اختفت عناصر الإخوان العسكرية على مدى الأيام القليلة التالية. كان من المقرر في الأصل أن تبدأ الحملة في اليوم الأول من رمضان أو ما يزيد عن شهرين ماضيين، والآن تأجلت لشهر آخر. ولقد أصابني الإحباط وخيبة الأمل من هذه النتيجة، بما أني اعتدت تماماً على طرق المراوغة عند العرب فقد أخفيت همي بتقديم التهاني لابن سعود على معالجته الذكية لموقف صعب. وقد تشبثت بصورة عنيدة بثقتي في ابن سعود وبقناعتي بأنه في الوقت المناسب سوف يتحرك، ولكني خشيت من أن شيئاً ما قد يحدث خلال الشهر القادم يؤدي إلى مزيد من التأجيل لهذا الميعاد؛ ففي أي لحظة قد يقوم عبدالله بضرب الخرمة.

وفي غضون ذلك، وأثناء وجودي في شقراء، أتيحت لي فرص كثيرة لأدرك أنه، مهما قد يقال عن الحملة العسكرية المقترحة ضد حائل على أساس السياسة العليا، فقد كان الشريف ومزاعمه هي التي تشغل بال الطبقات العليا[٣]. ومن الضروري أن نتذكر أنه في القطاعات الأكثر تقدماً في مجتمع الجزيرة العربية، في القصيم والوشم والأحساء، كان لا يزال يترسب في أعماق قلوب الرجال شعور بالتماثل والتجانس مع الأتراك من الناحية الدينية، ومن ناحية دورهم كحماة لعقيدة

(١) يقصد بذلك مشاركة القبائل في الحرب، فكل قبيلة عليها دفع قدر معين من الرجال والمال للمشاركة في الحملة العسكرية التي سوف تذهب إلى حائل. وهذه طريقة كانت سائدة أثناء الحروب قديماً. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن حروب ابن سعود مع ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ١ ص، ص ٥٧ وما بعدها، إيف بيسون، ابن سعود، ص ١٨٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وذلك بسبب أطماعه السياسية، وخيانته في التحالف مع الإنجليز ضد الأتراك. (ابن جريس).

المسلمين؛ فالتجار من المناطق المذكورة، وهم وهابيون صادقون بلا رياء أو تكلف، كانوا على اتصال شديد بالعالم بحيث أنهم لا يقيمون وزناً للتعصب الأعمى والمتصلب ولا يقدرونه، وفي الأتراك وجدوا ملاذاً كافياً وافياً لفخرهم الشرقي بخشونة الحياة التجارية وسط عالم غربي مهيمن؛ فالأتراك قوة عظيمة وراسخة تعتنق نفس العقيدة مثلهم دون أن تجبر رعاياها على التزمت والقسوة في السلوك المفروض عليها بالظروف السائدة في وطنها، وقد يندمون على زوال الأتراك، ويندمون على نشاط المسلمين الموجّه نحو هذه الغاية[١]، إن قلوبهم تلعن الشريف بصفته خائناً للقضية العامة للشرق، ولكن لأن ابن سعود كان بصراحة من الرأي نفسه، دون، على أي حال، أي ترجيح على مساهمته بشكل مادي في سقوط الأتراك، كانت ألسنتهم ترفض مطالب الملك حسين بحكم الجزيرة العربية. ولقد كانت ازدواجية آرائهم هذه طبيعية وشفافة، تماماً في ظل الظروف السائدة، فلم يُقصد منها الخداع أبداً.

في أول صباح من إقامتي المؤقتة في شقراء استيقظت ليقال لي: إن ابن سعود قد انطلق من المخيم في جولة من الزيارات لأعيان المدينة، وترك أمراً بوجوب لحاقي به على مهلي إذا رغبت في ذلك، كان المخيم، المكون من حوالي أربعين أو خمسين خيمة، ينتشر في الوادي على مسافة حوالي ربع ميل شرق البوابة الرئيسة للمدينة. وتبعاً لذلك مشيت متمهلاً عبر المساحة الرملية المعترضة من خلال مقبرة كانت قبورها على عكس الطريقة الوهابية، بنصب شواهد على رأس وقدم الميت، من ألواح الصخر الرملي الخشن ارتفاعها نحو قدمين[٢]. وقيل لي: إن هذه المقبرة لم

(١) في الحقيقة إن الغرب كان أسوأ في هيمنته على الشرق. والعثمانيون، وبخاصة في عصورهم المتأخرة، لم يكونوا على قدر جيد من تحمل المسؤولية والدفاع عن الدين والعقيدة كما فعل أسلافهم الأوائل. (ابن جريس).

(٢) ليست الطريقة الوهابية، كما يذكر فيلبي، ولكن منهج الدين القويم هو الذي يحرم ويحارب تشييد القبور والأضرحة فوق الأرض، ثم استخدامها موطن للتبرك والبدع والخرافات (ابن جريس).

تعد مستخدمة وتعود إلى فترة ما قبل ميلاد الدين الجديد، ولكن داخل البوابة مباشرة في فضاء مفتوح كبير والذي كان جانبه البعيد محدد بنصف دائرة من البيوت المأهولة لاحظت مقبرة أخرى من النوع نفسه، وتوصلت إلى نتيجة نهائية وهي أنه في جميع الاحتمالات لم تصل شقراء بعد إلى غلو التعصب الشديد السائد في الأقاليم الجنوبية[١].

عند مرورنا بأكواخ من سعف النخيل الصلب التي يسكنها رعاة الإبل المستأجرون، قام رفيقي إبراهيم الجنيفي بإلقاء التحية على أحد الأعيان المحليين الذي تصادف وجوده هناك في عمل أو لقضاء وقت الفراغ وعرّفني عليه. وكان هذا رجلٌ يدعى عبد الرحمن بن سليمان الجماز الشويمي، الذي اصطحبنا دونما أي مقدمات أخرى من خلال الشارع الرئيس، الذي كانت بيوته مزينة بعتبات عليا وسفلى من الحجر الرملي، ثم من خلال شارع جانبي إلى بيته. وكان مجلس القهوة، الذي انتظرنا فيه أخباراً عن المكان الذي يوجد فيه ابن سعود تحديداً؛ لأنه طبقاً للعادة كان عليه أن يقضي الصباح في الانتقال من منزل إلى منزل ليحيّي رعاياه الأوفياء، مفروشاً بصورة مريحة بالسجاد والوسائد الفخمة، وكان موقد القهوة من الإسمنت ومجهزاً بما يصاحبه في العادة من دِلال وآنية تشغل أحد أركان الغرفة[٢] التي كانت جدرانها مكسوةٌ بلياسة من الجبس الأبيض الناصع، ومزخرفة بصورة كثيفة بدوائر ومثلثات وأشكال أخرى متماثلة. وكانت هناك عدة فتحات، مزودة بأقفال خشبية مزخرفة، تؤدي من أحد جوانب المجلس إلى ما يشبه حديقة السقف أو مجلس قهوة في الهواء الطلق مخصص على ما يبدو بوضوح للاستخدام خلال الأمسيات الطويلة في شهر رمضان بفصل الصيف، عندما يجتمع مضيفنا ويلتقي

(١) الأقاليم الجنوبية كانت لا تخلو من الأضرحة والقبور المبنية فوق سطح الأرض، ولكن ربما كانت أقل مما شاهد فيلبي في وسط وشمال وشرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٢) هذه من العادات الاجتماعية التي كانت موجودة غالباً في بيوت الأعيان والوجهاء في أنحاء البلاد. (ابن جريس).

مع أصدقائه، بعدما يخففوا من قسوة الصوم بالنوم؛ وبذلك يحتالوا على ساعات الظلام بحديث مطول مفكك غير ذي هدف مع أقداح القهوة[١].

انقطعت تأملاتي في الغرفة بدخول رجل حسن الهيئة، والذي كانت ثيابه الجميلة ـ لاسيما العقال ـ ذو الخيوط الذهبية، على رأسه، توحي بأنه ربما كان أحد أفراد الأسرة المالكة. ولم أكتشف إلا فيما بعد أنه حاكم منطقة شقراء[٢]، ويسمى محمد بن سعود، على الرغم من أنه لا يتصل بأي شكل من الأشكال بعائلة آل سعود، لأنه أحد أفراد فرع العيسى من بني زيد من قبيلة تميم.[٣] لقد كان هذا الرجل ودوداً بصورة غير عادية حيث سألني: «ألست أنت الذي ذهب من الرياض العام الماضي إلى الشريف؟» وكان ردي بالإيجاب قد أثاره حتى نطق بكلام صريح قائلاً: «كيف يستطيع الشريف أن يسمي نفسه ملك العرب؟» ألم يأت شكسبير إلى نجد ورأى شقراء وكل هذه المناطق؟ ألم يفعل هاميلتون الشيء نفسه؟ والآن تأتي أنت إلى هنا. ألا يدرك الإنجليز أن هذه بلاد العرب وأن حاكمهم هو ابن سعود؟ لماذا؟ في بداية ثورته، أرسل الشريف لي عدة رسائل، وهي التي سلمتها لابن سعود بكل بساطة»[٤]. وتحدثنا كثيراً عن التجارة في شقراء. ولقد عبرّت عن دهشتي من حقيقة أن القوافل المحملة بالبضائع باتجاه الرياض تضطر إلى السير في دائرة طويلة جداً عن طريق شقراء عند قدومها من الكويت. وقد شرح لي أن ذلك من بقايا عصر ما قبل الحرب، عندما أصبح طريق التجارة الطبيعي من البحرين عن طريق الأحساء إلى الرياض غير آمن

(١) لمزيد من الإيضاح عن بعض العادات والتقاليد والأحوال الاجتماعية في شقراء انظر: العمار، شقراء، ص ٩٣ – ١٣٣. (ابن جريس).

(٢) كان من أمراء شقراء منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي عبدالعزيز البواردي، ثم إبنه عبدالله، ثم حجرف بن محمد البواردي عام (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، ثم محمد بن شريم، ثم عبدالرحمن البواردي، ثم محمد بن سعد البواردي، وغيرهم. للمزيد انظر: العمار، شقراء، ص ١٤٩. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قبيلة تميم، فروعها، موطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ – ١٦٧. (ابن جريس).

(٤) نستدل من هذا الحديث أن حاكم شقراء، محمد بن سعود، أيام مرور فيلبي بها كان متعاطفاً بشدة مع الملك عبدالعزيز ولم يكن لديه أي ميول أو تعاطف للشريف في الحجاز. (ابن جريس).

بسبب الاحتلال التركي للمنطقة الشرقية، ولذلك كان التجار يفضلون الغوص مباشرة في الصحراء من الكويت، وأصبحت شقراء مركز توزيع هاماً للجنوب. وكان لكبار تجارها وكلاء أو فروع في كل أنحاء البلاد، في الأحساء، والدوادمي الشعراء وأماكن أخرى. وكان ابن سعود يأمل في إعادة التجارة في الوقت المناسب إلى طريق البحرين الأقصر والأكثر ملاءمة، بيد أنه كان شديد الانشغال بأمور أخرى منذ اندلاع الحرب، فلم يفعل أي شيء في هذا الصدد[١].

كان الجنيفي، الذي ذهب يبحث عن ابن سعود في الخارج، قد عاد الآن ليستدعينا إلى بيت شخص يدعى عبدالله السبيعي[٢]، وهو جابي الزكاة المحلي. وكان مجلس القهوة في بيته، حيث وجدنا ابن سعود مع جمع غفير، يختلف اختلافاً طفيفاً عن الذي وصفته آنفاً، إلا أن تصميم ألوان الجدران كان لونه رمادياً داكناً بدلاً من الأبيض، بينما الزخرفة أقل إتقاناً وتتكون من سلسلة من الأفاريز المفصولة عن بعضها بأحزمة خالية من الزينة.

كانت الدوائر والمثلثات اللانهائية تضفي حركة على الأفاريز. وبالمجلس عمود داعم للسقف بسيط مليّس بالجبس مع تاج خال من الرسومات وشريط أضيق من التصميم الزخرفي، ويوجد في السقف مقابل موقد النار فتحة تفتح بحبل وبكرة يمر من خلالها الدخان وتقفل عند هطول المطر. وفي الجزء الأعلى من الجدران يوجد عدد من الفتحات مزودة بمصاريع، ويبدو أن الهدف منها التهوية أو العكس. ويبدو لي أن بيوت شقراء في معظمها توفر كثيراً من الضوء والهواء مقارنة ببيوت الرياض[٣].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحياة الحضارية في شقراء وعلاقتها بما حولها، انظر: العمار، شقراء، ص ٧٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) من قبيلة سبيع كما يشير اسمه إلى ذلك (فيلبي).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن أنواع الأبنية مثل البيوت ومرافقها في شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ٩٣، ١٢٥ - ١٣٠. (ابن جريس).

كان فيصل بن الدويش، الزعيم المهيب للإخوان من الأرطاوية، والذي رأيته الآن لأول مرة منذ أن تعرفت عليه في ديسمبر الماضي، من بين الجماعة، كما كان هناك أيضاً فيصل بن حشر، الذي بدا ـ على كل حال ـ ولسبب ما في خزي إذ تعرض مرة أو مرتين للتوبيخ بحدة من ابن سعود، الذي بدا هو نفسه من جميع الأشكال يعاني من نوبة من أمراض الكبد أو الطحال.

ومن الموجودين أيضاً سعود العرافة وفيصل بن الرشيد وأفراد آخرون من الأسرة الحاكمة، منهم أخو ابن سعود، سعود.

كان الجو في شقراء، الذي بدا لي أنه منشض أكثر من جو الرياض، قد تعرض لبعض ملاحظات ابن سعود اللاذعة، الذي يعاني من متاعب معدته على الأرجح بسبب الماء المحلي، وهو بالرغم من أنه نقي وحلو الطعم، إلا أنه يشتهر ببعض الخواص المزعجة. على كل فإن مستوى الماء في آبار شقراء عموماً هو عشر قامات في المتوسط. وذلك أفضل من الوشم، على الرغم من أنه أقل بكثير من ماء الحسي في العاصمة الوهابية. لقد كان الطقس في الحقيقة في هذه الفترة غير سار بالمرة، فالرياح متقلبة، وهناك هبات قصيرة من الأعاصير اللولبية، والعواصف الترابية، والسماوات الغائمة، ودرجات الحرارة يصل أعلاها إلى (١١٠) فهرنهايت لأيام عديدة. هكذا كان حظنا وقدرنا، وفي الرابع عشر من أغسطس جاءت محاولة متقطعة في الحقيقة لهطول المطر، وهو أول مطر منذ السادس من مايو، وبدا لي أننا ربما كنا نتعرض للحد الأقصى من الرياح الموسمية. هذا الفصل، الذي يُتوقع خلاله عادة أن يسقط بعض المطر، يُعرف باسم الخريف[1] والأسوأ من كل ذلك، أنه

(١) طبقاً للحسابات المحلية كنا قد دخلنا لتونا أو على وشك الدخول في فترة سهيل، وهو نجم يظهر عند الفجر، والذي يعتبر في الحقيقة آخر فترة من فترات الصيف أو ربما يُدرج في الصفري التي يعتبر أحياناً مطابقاً للخريف. (فيلبي).. للمزيد عن مناخ شقراء انظر: العمار شقراء ص ٢١ - ٢٤، وللاطلاع على مواسم الأمطار عند العرب، انظر: ابن قتيبة، كتاب الأنواء، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

في آخر النهار والصباح الباكر نادراً ما تهبط درجة الحرارة عن (٨٠) درجة، وفي مناسبات عديدة كانت قياسات درجة الحرارة أكثر من (٩٠) درجة[١].

في اليوم التالي عقد ابن سعود مجلسه في بيت السبيعي، وتحول النقاش إلى موضوع الساعة الملتهب، وهو الشريف. قال سعود العرافة: (منطلق خطير لواحد له حق المطالبة بالعرش الوهابي على أساس الوراثة بصورة غير قابلة للنزاع تماماً على الأقل مثل رأيه هذا)[٢]، إن أحقية حسين بعرش الحجاز، وهو من عشيرة العبادلة التي تدين بوضعها الحالي للأتراك أقل من أقاربه من عشيرة ذوي زيد أحفاد عبدالمطلب، وبالتالي الفرع الرئيس من عترة النبي ﷺ. وأكد أيضاً أن الأشراف ونسبة لاختلاط دمهم بكثرة عن طريق أمهاتهم الزنجيات والشركسيات والتركيات وأخريات غيرهن، لا يمكن أن يكونوا عرباً أقحاح مثل أهل نجد. كيف إذن يستطيع حسين أن يدعي أنه ملك العرب أو كيف يمكن أن نسانده؟[٣].

لقد تحدث مطولاً وبكثير من الحماسة والهياج، ولكن فيما يبدو أن مناقشاته لا تؤدي إلى شيء، وكل ما استطعت أن أفعله كان أن شرحت لهم أن البريطانيين ـ على الرغم من أنهم غير مسؤولين أبداً عما يدعيه الشريف من لقب «ملك العرب» ـ إلا أنهم عاجزون عن منعه من تسمية نفسه بما يحب. وواصلت قولي بأن اعترافنا بمنصبه ملكاً على الحجاز يعود إلى حقيقة أنه عندما أعلن سلطان تركيا الجهاد ضدنا ونادى به، كنا مضطرين لإرضاء الملايين من رعايانا المسلمين

(١) للمزيد عن مناخ وتضاريس شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ما بين الأقواس جملة اعتراضية، ولو حذفت لن تؤثر على المعنى. (ابن جريس).

(٣) يتضح أن أهل نجد كانوا يرفضون دعوة الشريف حسين بن علي ليكون ملكاً على العرب. فكانوا يرونه غير مؤهل لذلك لوجود من هو أفضل منه. ثم إن دماء الأشراف خالطتها دماء أخرى بسبب زواج بعضهم من نساء غير عربيات. (ابن جريس).

الهنود أن نعثر على زعيم مسلم معترف به ليرفع راية الثورة لصالحنا ضد الأتراك[١].

هنا تدخل ابن سعود في النقاش وقال: إنه لا يشتهي أي لقب ولا أي إقليم خارج حدود حق مولده في نجد. وبالنسبة لمكة فليس لديه رغبة مهما كانت في أن يصبح حاكمها، وكل ما يهمه فيها هو بيت الله، وما يلزمه بصفته مسلماً ورعاً هو أن يحج إليه مرة واحدة في حياته لمدة عشرة أيام على أقصى تقدير. والحصون والقصور، التي شيّدها أسلافه في مكة والمدينة والطائف، تذكره فقط بعهد من التاريخ القديم لنجد، وليس عنده رغبة في إعادة احتلالها[٢].

ثم تحوّل فجأة إلى موضوع آخر، وهو مصدر واضح من مصادر القلق والاضطراب لكثير من أهله، أي تحالفه مع البريطانيين. وقال: «لماذا ؟، لأنهم على غير ملتنا، هذا حق، ولكنهم من أهل الكتاب وبالتالي يستحقون التسامح. على أي حال فإن الالتزام بالجهاد مشروط بالقدرة على تنفيذه، وهذه من الله». لقد أدرك بصورة كاملة عجزه عن تنفيذ أي مغامرة مثل هذه إلى أن يحقق النجاح، وبالتالي اعتبر نفسه معفياً من الله من محاولة التزامه. وعلى العكس من ذلك كان يسعى بنفسه وبصورة متكررة لطلب المساعدة من البريطانيين ضد العدو الحقيقي للدين الحق، أي الأتراك، وكنا نرفض طلبه دائماً إلى أن أصبحنا نحن أنفسنا في حاجة إلى مساعدته. كان هذا العرض لآرائه ووجهات نظره في حضور أعيان شقراء وزعماء الإخوان مثل: ابن الدويش وابن حشر مفيداً ومقنعاً[٣]. فقد مهد الطريق لتنفيذ الحملة العسكرية ضد حائل، وفوق كل هذا وذاك بث شعوراً عاماً أفضل

(١) يفهم من تفسيرات فيلبي أن بريطانيا لا يهمها اللقب الذي يسعى له الشريف حسين بن علي، ولكن المهم هو كيف ترعى مصالحها وتكون الجولة في صالحها ضد أعدائها. (ابن جريس).

(٢) كلام الملك عبدالعزيز يدل على حنكته ودهائه السياسي، فهو لا يتطلع إلى أمور خيالية، وإنما تخطيطه كان في نطاق إمكاناته وواقعه المعاصر آنذاك. (ابن جريس).

(٣) يظهر من شروحات الملك عبدالعزيز ونقاشاته مع الآخرين في هذه الفقرة دبلوماسيته في التعامل مع الأمور، وعدم إلقائه الكلام على علاته دون أن يحسب لكل ما يقول حساباً. (ابن جريس).

تجاهي أنا شخصياً بصفتي ممثلاً لبريطانيا العظمى، التي كان دافعها في الضغط لشن هجوم على ابن الرشيد محل شك وتخمين دائم.

وهكذا، على الرغم من الخوف المستمر من أن أي يوم قد يأتي بأخبار عن تجدد هجمات الشريف على الخرمة[١]، إلا أن أيام إقامتي المؤقتة في شقراء قد مرت بسرور كاف. وكانت رحلتي الوحيدة في المنطقة المحيطة بها إلى القرائن التي وصفتها من قبل. ومع هذا كنت، على كل حال، مشغولاً تماماً بالتعرف بشكل كامل على تفاصيل مدينة وواحة شقراء[٢]، ونادراً ما كان يتاح لي وقت، حتى إنني كنت أضن على إبلنا بالتمتع في مراعي النفود المجاورة لنا[٣]، والتي كانت تعود منها كل يومين للسقيا. وفي مثل هذا الفصل كان يومان يبدوان كافيين تقريباً للإبل وتستطيع تحملهما بشكل مريح بلا ماء. والإبل التي تترك لترعى في المراعي تسمى عازب بينما تلك التي في المراعي الربيعية تسمى جازي[٤]، أي أنها في الجزو.

في أحد الليالي أثار فضولي سماع نداء جهوري في المخيم، وهي ظاهرة ترتبط في ذهني بالمخاطر الموجودة في المخيمات المنعزلة في الفيافي والجبال. وبدا لي من الغريب أن يحدث مثل هذا الشيء وسط الأمن الوافر في خيام ابن سعود، بيد أن الشائعات قد انتشرت في الخارج عن توقع حملة هجومية من ابن الرشيد، واعتقدت أنه ربما صدر أمرٌ بالتنبيه والتحذير. على كل حال، أدت الاستفسارات إلى استخراج معلومات مفادها أن أحد البدو، انتهز تجمع عناصر الإخوان العسكرية من كل حدب

(١) حرب الشريف علي أهل الخرمة كانت من الأمور المزعجة للملك عبدالعزيز. ويرى أن الشريف أشد خطراً عليه من ابن الرشيد في حائل. ولكن ذهابه إلى الشمال كان حسب الوعود التي قطعها على نفسه مع بريطانيا من أجل حل مشكلته مع الشريف في الحجاز، والعجمان في الرق. لمزيد من الاطلاع، انظر: إيف بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بلدة شقراء، انظر: العمار. شقراء، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) نفود القنيفذة حيث يوجد بكثرة حشائش النصي المفضلة. (فيلبي).

(٤) استعمل دواتي كلمة (جازين) للإبل في مراعي الربيع، ولكني لم أجد تأكيداً لذلك، ربما كان يقصد جازي. (فيلبي).

وصوب، كان يعلن فقط عن جائزة مقدارها ثلاثون دولاراً لأي شخص قد يعطيه معلومات تؤدي إلى استرداد ثلاثة من الإبل سُرقت منه أو ضلت طريقها خلال العام الماضي. وكانت خيامي تقع غير بعيد عن «المضيف» أي خيمة الضيوف الرحبة المصنوعة من الشعر الأسود. والمضيف مع عدة خيام أخرى قربها كانت تؤوي زعماء المجموعات العسكرية المختلفة من الإخوان ومن يخدمهم. لقد كانت هذه المجموعات من الأرطاوية، ومبايض والداهنة والفريثان والغطغط وباقي المناطق. وكانت الفترة البيضاء للإخوان الأكثر وضوحاً خلال هذه الأيام، وبقدر ما كنت أستطيع أن أصل إلى تقدير تجمع العشائر فإنه لابد قد وصل إلى ما يقارب ستمائة رجل مسلح. وواحد من الأمور غير المريحة لي هو قرب مكاني من عناصر الإخوان العسكرية وما يصدره تدريبهم على الرماية من إزعاج يقض مضجعي ويشتت ذهني.

فبمناسبة وغير مناسبة، ومع مراعاة الاقتصاد في الذخيرة والالتزام به كان الإخوان يقومون بالتدرب على الرماية بالبنادق في جرف خلف خيمتي وعلى بُعد مائة ياردة منها. وقد كان ابن سعود يرفض إهدار الذخيرة لأنها سلعة غالية، واعتقدت أن في الميدان الذي يبلغ حوالي ثمانمائة ياردة قد لا يكون من المستبعد أن تجد طلقة عرضية طريقها إلى خيمتي بدلاً من الجرف. في ظل هذه الظروف رفعت احتجاجاً ضد هذا التمرين مهما كانت ضرورته ما دمت موجوداً في خيمتي. وتوقف التدريب مع خطوات اعتراضية كان الهدف منها بلا شك مضايقتي، ولم ينته تماماً إلا بعد أن تدخّل حاجب الملك بتأثير أكبر حتى تم اختيار ميدان رماية آخر أكثر ملاءمة. كانت البنادق الحديثة والذخيرة غزيرة بدرجة كافية في هذه الأيام، ولكن ابن سعود لم يغض طرفه عن ضرورة فرض نوع من السيطرة على التجارة في سلعة قد تشكل في يوم من الأيام خطراً على الدولة.

إن الإسراف في توريد الذخيرة إلى قوات الأشراف من السلطات البريطانية وتهور علي وعبدالله في توزيعها على كل من هب ودب قد أديا بحلول هذا الوقت إلى

نشوء تجارة رائجة في البنادق والذخيرة بوسط الجزيرة العربية كله. وقام شيوخ قبائل حرب ومطير وعتيبة بجمع رجال عشائرهم وإبلهم وتوجهوا للأشراف أملاً في اقتسام سخاء الأمراء الأشراف، الذين أقسموا لهم بالولاء الأبدي. بيد أنهم بمجرد أن يستلموا عدداً مناسباً من البنادق وصناديق الذخيرة، ناهيك عن أكياس الذهب، إلا ويحملونها على أنعامهم ويعودون بها إلى مراعيهم، ولا يشاركون في العمليات التي يقوم بها راعيهم ما عدا أنهم يعودون مرة ثانية أو حتى ثالثة ليسدوا النقص في مخزون الذخيرة التي نفدت بسبب مبيعات أسواق نجد. وكان المبدأ الذي تبناه ابن سعود هو أنه بالرغم من أنه في صالحه بشكل عام أن يحصل كل رجل قادر على حمل السلاح سلاحاً صالحاً للخدمة، إلا أنه من مصلحته توريد البنادق.

وبناءً على ذلك لم يبذل أي محاولة للسيطرة على تداولها، ولكن الذخيرة تظل موضوعاً مختلفاً، فشن الغارات داخل أراضيه أو دون موافقته كان ممنوعاً، ويعتبر من واجب الدولة أن توفر الذخيرة للعمليات التي تنفذ بموافقتها أو بأمرها، وفي الوقت نفسه كان يدرك تماماً الحاجة الماسة إلى ضبط الإمدادات الأهلية من الذخيرة عند أدنى حد؛ ولذلك كان موظفوه في نجد كلها لديهم أوامر وحرية تصرف تامة لشراء كافة هذه الإمدادات فوراً عند وصولها إلى مناطقهم وبأسعار ثابتة معقولة[١].

وعلى الرغم من حتمية وجود حالات تهريب وتصرف شخصي في مثل هذه السلع بأسعار باهظة، إلا أن كمية الذخيرة المشتراة بهذه الطريقة على نفقة الدولة أصبحت مذهلة؛ ففي أحد الأيام، وأثناء جلوسي مع ابن سعود نناقش الأمور في الخيمة العظيمة ذات العمود الواحد من طراز كونبور، التي تلقاها على سبيل الهدية من ضاري ابن طواله، الذي أعطي إياها السلطات البريطانية في البصرة، جاء أمين

(١) سياسة الملك عبدالعزيز في ضبط الأسلحة والذخيرة واستخدامها بطريقة منظمة مدروسة، مما ساعد على ضبط الأمن والقضاء على الفوضى في البلاد. (ابن جريس).

الخزينة محمد بن شلهوب، ومعه عدد من أحزمة ذخيرة الرشاشات التركية لكي يفحصها سيده ويوافق عليها، والتي كانت جزءاً من مستودع اشتراه تاجر كويتي في الحجاز. وبعد فترة، وخلال إقامة مؤقتة في القصيم، كان نحو ستمائة ألف طلقة من طراز (S.A.A.) قد تم شراؤها بالطريقة نفسها، ويعتقد ابن سعود بنفسه أن عدد البنادق التي دخلت أراضيه من الحجاز والتي تم التصرف فيها بصورة شخصية يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة. أما سعر الذخيرة فقد تمت المحافظة على بقائه منخفضاً بشكل فعال عند مستوى معقول بإجراءات صارمة جرى اتخاذها لمنع تصديرها من نجد إلى أسواق الخليج.

بالإضافة إلى خيمة الاستقبال الخاصة بابن سعود فإن المخيم يتكون في معظمه من خيام بيضاء على هيئة الجرس أو خيام هندية صغيرة ذات أشكال متباينة. وكانت خيمة الضيوف الكبيرة، التي يؤخذ إليها الشيوخ والأعيان الآخرون عند وصولهم ـ كما ذكرت من قبل ـ خيمة بدوية عظمية من الشعر الأسود (مثل هيكل متنقل عند اليهود)، والتي أمامها زُرع علم الدين الحق الملفوف، وتعلوه كرة معدنية لامعة ومسمار كبير. كانت وجبات أعيان الضيوف تقدم في خيمة بيضاء منفصلة من مطبخ مختلف عن الذي تجهز فيه الوجبات لابن سعود ولي. ولقد كان الطعام بسيطاً دائماً، من الأرز واللحم والشوربة أو المرق، ولكنه ذو جودة عالية، وبالإضافة لحاشيتي كان الزوار أحياناً يأتون لمشاركتي في الطعام. ومن بين الذين كنت أرحب بهم ترحيباً شديداً جابر المري[1]، فقد كان شيطانياً كما العهد به دائماً، ولم يكن بالسيئ في بعض الرحلات الشاقة خلال الاثني عشر يوماً الماضية التي قضاها في خدمة سيده[2].

(١) لقد توفي لأسفي الشديد أثناء وباء الإنفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م). فيلبي وكانت الإنفلونزا، والجدري، والطاعون والجوع من الأمراض التي تقضي على الناس قديماً وبأعداد هائلة. (ابن جريس).

(٢) ذهب من الرياض إلى الهفوف وعاد إليها ليغادر إلى شقراء (فيلبي).

والآخر كان منصور بن رميح من بريدة، وهو واحد من ثلاثة إخوة لعبوا دوراً هاماً في تجارة الإبل بين الجزيرة العربية والمناطق المتاخمة لها، وكانوا في ذلك الوقت منهمكين بشدة في شراء حيوانات النقل لجيوش الأشراف[١]. بالإضافة إلى مثل هؤلاء الزوار الذين يأتون بين الحين والآخر كانت مجموعتي الصغيرة قد أصبحت بشكل أو بآخر كبيرة دائماً بانضمام ثلاثة هنود ـ الذين عند وصولهم إلى الرياض في رحلتهم الطويلة والموحشة للحج بمكة ـ قد انتهزوا زحف ابن سعود ورافقوه نحو الشمال على أمل العثور في القصيم على جماعة متجهة إلى الحجاز، والتي يمكن أن ينضموا إليها على أمل الحصول على طعام كاف لكي يحفظوا أنفسهم على قيد الحياة والركوب أحياناً لكي يرتاحوا من تعبهم الطويل. وبعدما عوملوا بلطف وكياسة نادرة من الخدم ورفقاء مخيم ابن سعود، انجرفوا واحداً تلو الآخر في مخيمي الصغير، حيث كان ينظر إليهم رفاقي نظرة شك على أنهم قد يكونون لصوصاً محتملين. وقد حصلوا بكل المقاييس على طعام كاف ووجدوا فرصة الركوب على الحيوانات التي تحمل الأمتعة في قافلتي. كان أحدهم من مواطني دلهي، ويدعى أحمد وذو جسم نحيل مثل باقي الفلاحين المنهكين في منطقة أمبالا، والثاني بنغالياً طويلاً هزيلاً ولا يعلم من الأوردية إلا أقل القليل ولا شيء من العربية على الإطلاق، بينما كان الثالث بلوشي متفاخراً ومتهوراً آتياً من جودار ويتكلم عدة لغات بطلاقة منها الأوردية، والفارسية، والعربية. وفي عنيزة افترقوا عن مجموعتي تقريباً دون أن يلاحظهم أحد، ومن يدري ما إذا كانوا قد وصلوا وحققوا هدفهم على الإطلاق أم سقطوا جثثاً هامدة على جانب الطريق، مثلما يحدث للكثيرين[٢].

(١) تجارة الإبل وباقي الحيوانات الأليفة، كالأغنام والأبقار كانت من المهن النشيطة في الجزيرة العربية لما يجني أصحابها من أرباح جيدة لممارستهم هذا العمل. (ابن جريس).

(٢) كان المسافرون قديماً من التجار والحجاج يلقون حتفهم في الطريق لما يقابلون من مصاعب مثل: قطاع الطرق، بالإضافة إلى بعض الأمراض والجوع، وكذلك تعرض بعضهم إلى اعتداء بعض الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور وغيرها. (ابن جريس).

ولا عجب في ذلك، عندما نرى أنهم قد انطلقوا في سفرهم دون مؤونة من مواطنهم البعيدة، وهم واثقون من أنهم سوف يتمكنون بإحسان وصدقات إخوانهم من أداء هذا الحج الشاق الذي وصفه النبي ﷺ[١] لأتباعه، وهو لم يخطر بباله أبداً أن دعوته التي بشر بها سوف تضرب بجذورها في أقصى أصقاع قارتين[٢].

وخلال هذه الأيام من إقامتي المؤقتة في عاصمة الوشم سنحت لي فرص وفيرة، أثناء فترات الفراغ بين اجتماعاتي مع ابن سعود والأعيان المحليين لإنهاء المعاملات الرسمية أو لمناقشة الأمور السياسية، أن أدرس المدينة وبيئتها. إن الواحة تقع في واجهة نهرية كما تبدو من نحو (١٥٠٠) ياردة على الضفة اليسرى لأحد الأودية، والأخير بعدما ينزل من هضبة من الحجر الرملي في الاتجاه الشرقي باسم شعيب عشرة يلتقي عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الواحة بقاع مجرى وادي الغدير القادم من الجنوب، ويصبح اسمه وادي شقراء، ويمتد نحو الشمال في وادٍ يتراوح عرضه من ميل إلى ميل ونصف لمسافة شمال المدينة، وعندها ينبسط في دلتا متسعة ويدخل في البطين عند النقطة التي توجد فيها مزارع قصور السنيدي[٣].

وهناك توجد ستة من بساتين النخيل المتفرقة والمسورة، متوزعة في الجزء الشمالي من الوادي، بينما حوالي ثلثي القطاع الرئيس للواحة يتكون من بساتين أشجار النخيل المزدهرة التي تغطي بكثافة السور الغربي المتهدم بشكل أو آخر من المدينة نفسها، التي تأخذ شكل المُعيّن وتحتل القسمين الشرقي والشمالي من الواحة. وهناك سورٌ ساترٌ على طول قاع مجرى السيل ليحمي المدينة من هجوم

(١) عبارة ﷺ إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٢) إن الدين الإسلامي هو دين العالم بأسره، فلم يقتصر انتشاره إلى قارتين فقط، كما يذكر فيلبي، وإنما انتشر في جميع أنحاء الكرة الأرضية، مع ما يواجه معتنقيه من فتن واضطهاد، ولكن هذا وعد الله الذي أنزل على محمد ﷺ ليكون دين العالمين (الجن والإنس). (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن تضاريس شقراء، انظر: العمار، ص ١٩ - ٢١. (ابن جريس).

الفيضانات التي تكتسح الوادي أحياناً، بينما خلفه وعلى مسافة قصيرة يوجد سورٌ طينيٌ سميكٌ، بارتفاع خمسة عشر قدماً ومزود بأبراج على مسافات فاصلة بينها بحوالي (١٠٠) خطوة. ويمتدُ هذا السور على طول الواجهة كلها من الزاوية الجنوبية الغربية حتى الطرف الشمالي ليؤدي الغرض نفسه من الحماية ولكن ضد الأعداء من البشر[١]. لابد أن هذا السور كان في وقت من الأوقات يمر في دائرة كاملة حول المدينة، بيد أن توسع الزراعة في الاتجاه الغربي، وتعديات الرمل على الجانب نفسه والإهمال البشري قد ساهم في تجريد الجناح الغربي من الواحة من دفاعاتها، فحتى السور الداخلي الذي يفصل المدينة عن بساتين النخيل قد بلغ الحالة نفسها من التدهور لدرجة أن العدو ـ بمجرد أن يكسب موطأ قدم في بساتين النخيل، قد لا يجد صعوبة تذكر في دخول المدينة؛ ولذلك ليس للسور النهري الكبير إلا القليل من الفائدة العملية في الغرض الذي بلا ريب أنشئ من أجله.

إن المدينة نفسها ـ التي يطوقها الجدار الدائري في جنبيها الشرقي والشمالي وتلفها أيضاً بقايا الجدار الداخلي المتهدم آنف الذكر في الجانب الغربي ـ تمتد حتى زاوية في الجنوب، والمسافة من هذه النقطة حتى أقصى نقطة شمالية تبلغ سبعمائة ياردة. وأقصى عرض لها يبلغ أربعمائة وخمسين ياردة. وربما يتراوح سكانها بين سبعة وثمانية آلاف نسمة، ويشمل ذلك المزارعين والأمراء والتجار وصغار التجار. وصغار التجار هؤلاء يؤدون عملهم في مبيعات التجزئة مع البدو والزبائن الآخرين في سوق صغير مثلث الشكل تقريباً يحتل موقعاً وسطاً في المدينة، ويحتوي على حوالي أربعين أو خمسين دكاناً تطغى عليها مئذنة الجامع الكبير الملفتة للنظر، التي تشكل جانبه الشمالي الشرقي. من هنا يمتد شارعٌ عريضٌ في اتجاه شمالي حتى يلتقي بشارع متقاطع معه يصل السديري، أي البوابة الرئيسة في الركن الشمالي الشرقي

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن بعض المعالم الأثرية في بلاد شقراء، انظر: العمار، ٨١ – ٨٧. (ابن جريس).

من المدينة مع البوابة الغربية في القطاع الشمالي الغربي منها. ليس لأي من هاتين البوابتين، وهما الوحيدتان السليمتان في المدينة، أي ميزة معمارية، بينما أن المدخل الشمالي عبارة عن فتحة ضيقة في السور تؤدي إلى فناء مفتوح صغير توجد به عادة القليل من خيام البدو. وهناك مساحةٌ مفتوحةٌ مماثلةٌ ولكنها كبيرةٌ تشغل منطقة واسعة داخل بوابة السديري مباشرة، في حين توجد مساحةٌ كبيرةٌ في الطرف الجنوبي من المدينة خالية أيضاً من المباني ومفصولة بسور المدينة، الذي يشكلّ هنا زاوية حادة، عن المقبرة الحديثة الكبيرة التي تقع خارجه مباشرة. والبيوت الموجودة في الجزء الأوسط من المدينة بجوار السوق سيئة المظهر مزدحمة ومتلاصقة كثيراً، وطوابقها العلوية تغطي تماماً الشوارع تحتها مع وجود فجوات فقط أحياناً تسمح بدخول الضوء إليها[١]. هذا الحي المكتظ بالسكان مثل مصيدة الأرانب، في هذا الجزء من المدينة يختلف اختلافاً شديداً مع الحي الجنوبي الأرستقراطي، حيث يعيش كبار التجار في بيوت مشيدة تشييداً حسناً، ففي غرف الطابق الأرضي ينجزون عملهم في تجارة الجملة، ويخزنون الإرساليات الواردة إليهم من الأقمشة والبضائع التي تباع بالقطعة أو بأطوال محدد، والسلع الأخرى التي يتلقونها على فترات متقطعة من الساحل. والطوابق العلوية تحتوي على غرف معيشتهم، وغرف العائلة مفصولة تماماً بالطبع عن الغرف التي يستقبل فيها صاحب البيت زواره أو يؤوي الضيوف[٢].

إن بساتين النخيل تُروى في موسم المطر بإدخال مياه السيول في دائرة الواحة من خلال قنوات لها سدود مقنطرة لها بوابات يمكن إغلاقها بألواح أو أغصان موجودة في السور الخارجي، بهذا الري تتشبع النخيل بالمياه سنوياً بالقدر الذي

(١) عن التركيبة الجغرافية والسكنية لبلدة شقراء، انظر: العمار، ص ٨١ – ٨٥، ١٢٥ – ١٣١. (ابن جريس).
(٢) للاطلاع على طريقة البناء والتشييد في بلاد شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ٨٣ – ٨٥، ١٢٥ – ١٣٠ (ابن جريس).

تحتاجه جذورها، ولكن يستمر الري المتكرر بانتظام لصالح النخيل ومحاصيل الفواكه الجانبية الهامة، والخضروات، والحنطة من آبار كبيرة من نوع "جالب". وتستخدم الحمير والأبقار والإبل هنا لسحب المياه، على أن الحمير هي الأكثر استعمالاً. وكانت أكبر بئر رأيتها حقيقة واحدة من ثمانية دواليب، وهي بئر عظيمة ذات تجويف مستطيل مبطن من الداخل بالحجارة من أعلاه إلى أسفله، وطولها عشرون قدماً وعرضها عشرة أقدام وعمقها عشرة قامات، وكانت تعمل في البئر مجموعة من ثمانية حمير صاعدة وهابطة السطح المنحدر الذي ـ في هذه الحالة ـ كان واحداً من جوانب البئر فقط.

بالإضافة إلى النخيل تتميز واحة شقراء بثروة من أشجار الفواكه التي تنمو تحت النخيل، وتبرز من بينها على وجه الخصوص أشجار الأترج، والعنب لا يبدو أنه شديد النجاح هنا، فثماره ليست ذات جودة عالية، ولكن التين وفيرٌ. ومن الخضروات كان القرع أشد ظهوراً، بينما هناك مساحات كبيرة لزراعة الدخن والفصفصة[١]. أما القمح والشعير قد حُصدا منذ زمن بعيد. وبدأت الآن التمور الجديدة الطازجة تظهر بصورة منتظمة في طعامي، ولكن قيل: إن الموسم قد تأخر كثيراً بالمقارنة بما هو معتاد، وعناقيد التمر الكبرى على الشجر كانت لا تزال في معظمها خضراء[٢]. ولا توجد مرعى في وادي شقراء للإبل، التي تضطر للخروج حتى صحارى النفود المحيطة بها، أو تُعلف في مربطها بحشيش النصي (Nussi) الممتاز الذي يُجلب من هناك، بيد أن الماعز والأغنام المحلية تجد رزقها بصورة متقلبة في المنطقة المجاورة للواحة مباشرة، فالنباتات الأشد انتشاراً هناك هي حشيش الحرمل والضعة. في كل مساء يأخذ القطعان إلى المدينة رعاة مستأجرون،

(١) الفصفصة: أي البرسيم الذي يستخدم علفاً للحيوانات. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن النشاط الزراعي في بلاد شقراء، انظر: العمار، ص ١٣٩ - ١٤٧. (ابن جريس).

وهناك يتولى أصحاب الحيوانات المسؤولية عنها حيث يقودونها حتى غرف الدور الأرضي في منازلهم، لتقضي الليل بعد حلبها[١].

في إحدى الأمسيات وفي أثناء مشاهدة هذه العملية من إدخال قطعان الماعز والأغنام للمدينة وتوزيعها على أصحابها، وكم كان من المدهش أن يتعرف كل مالك بسهولة على قطعانه ويجمعها معاً من وسط القطيع كله، لاحظت عدداً من الصبيان منهمكون في لعبة غريبة، التي لا أستطيع وصفها إلا بأنها تشبه صورة بدائية من لعبة الجولف. وتسمى هذه اللعبة «البير» أي البئر (أو الحفرة حسبما يمكن أن نترجمها أيضاً) وقيل: إنها هي المتعة الشائعة في شمال نجد كلها من الوشم حتى حائل. توضع قطعةٌ صغيرةٌ من الخشب طولها نحو ستة بوصات فوق حافة حفرة ضحلة مجوفة في الأرض بحيث يكون نصفها مُلقى على الأرض والنصف الآخر حراً في الهواء. يضرب اللاعب بعصا عادية أو خيزران الطرف الحر من الخشبة بحيث يجعلها تقفز في الهواء، ثم بضربة أخرى بالخيزران فتندفع بسرعة في الهواء إلى أبعد مسافة ممكنة عن الحفرة. ويهدف اللاعب بعد ذلك إلى توجيه القطعة الخشبية مرة أخرى إلى الحفرة بضرب أحد طرفيها ليجعلها تقفز في الاتجاه المطلوب. واللاعب الذي ينجح في إعادة خشبته إلى الحفرة (ربما بأقل عدد من الضربات، على الرغم من أنني لم أتحقق بدقة من ذلك) يعتبر هو الفائز[٢].

ولعبةٌ أخرى رأيتها خلال تلك الأيام كانت تسمى «حدرق» أو «حدرج» ومن الواضح أنها قد جاءت أصلاً من الحجاز، وتقتصر في نجد على العبيد. في هذه اللعبة يتم فيها حفر ثمانية أو تسعة تجاويف صغيرة في الأرض بترتيب معين،

(١) رعي البهائم، والإبل، والأبقار كانت من المهن الرئيسة عند عموم سكان الجزيرة العربية، وبخاصة قبل ظهور النفط واستحداث الوظائف الحكومية التي فضلها كثير من الناس على مهن الزراعة والرعي. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع على لعبة (البئر) التي يذكرها فيلبي، وكذلك عن عدد من الفنون والألعاب الشعبية وبعض وسائل التسلية في بلدة شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ١١١ - ١٢٥. (ابن جريس).

وتوضع حصاةٌ أو كرةٌ من روث الإبل في كل تجويف، بعد ذلك يقوم اللاعب برش حفنة من الحصى أو الكرات فوق المنطقة التي تغطيها الحفر. ثم يبدأ بإزالة محتويات الحفرة التي بها أكبر عدد من الكرات ويبعدها، ثم يأخذ محتويات الحفرة التي بها ثاني أكبر عدد وينثرهما فوق المنطقة كلها. تستمر هذه الحركات إلى أن يصبح إجمالي عدد الكرات الباقية أقل من إجمالي عدد الحفر ولا يوجد في أي حفرة أكثر من كرتين. عند الوصول إلى هذه النقطة يقوم اللاعب بتوزيع كراته طبقاً لقواعد وقوانين معينة لم أوفق على الإطلاق في فهمهما والتي تبدو أنها معقدة تماماً، بحيث تكون الكرات الباقية في حفر متجاورة مع بعضها البعض وليست مفصولة عن بعضها بحفر خالية[١].

إن شقراء ـ مثل باقي الوشم ـ كانت تشكل جزءاً من المناطق الخاضعة لسيطرة ابن الرشيد خلال العقد ونصف العقد من القرن الماضي، بيد أنها كانت دائماً غير راغبة في حكمه، وكانت إلى حد ما شوكة في حلق هذا الحاكم؛ لهذا السبب قام عبد العزيز بن رشيد بتعزيز التحصينات في ثرمداء، واستعمل هذه المدينة كقاعدة عسكرية له في المنطقة بدلاً من العاصمة.

وفي خريف عام (١٩٠٣م)، أي بعد سنة من استرداد ابن سعود للرياض والمناطق الجنوبية، حاول ابن الرشيد أن يعيد الاستيلاء على الدلم في منطقة الخرج، ولكنه أجبر على التراجع[١]، ولم يجد ابن سعود ـ بعدما طارد قواته المفككة والخائرة ـ أي صعوبة في فتح منطقة الوشم كلها دون مقاومة في ربيع (١٩٠٤م).

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن ألعاب التسلية في شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ١١١ وما بعدها. كما يظهر أيضاً عند فيلبي دقة معلوماته أثناء الوصف والتدوين، لأننا بعد مقارنة أقواله مع بعض الروايات التي سمعناها عن الألعاب في بلدة شقراء وما حولها وجدناها متطابقة إلى درجة كبيرة (ابن جريس).

(١) للاطلاع أكثر عن بلاد الدلم، انظر: محمد بن زيد العسكر. الدلم (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي السنة نفسها عاد ابن الرشيد للهجوم و «حاصر» شقراء من الموقع الذي استولى عليه وسط قصور السنيدي، إلا أن أمير الرياض، ابن سويلم، نجح في الدفاع عنها وصد الهجمات المتكررة لمدة شهر، وكان في الوقت الملائم فتح منطقة سدير[١] (دون مقاومة أيضاً) من قبل ابن سعود في صيف (١٩٠٤) واحتلاله بعد ذلك للجزء الأكبر من القصيم في السنة نفسها قد أراح الوشم بشكل نهائي من أي أخطار أخرى. ومنذ ذلك الحين خلا تاريخها من الأحداث.

كان يوم الجمعة ـ (١٦) أغسطس ـ آخر يوم لنا في شقراء[٢]، عندما برز عبيد وخدم ابن سعود لصلاة الظهر في المسجد الكبير بأفضل ما لديهم من ملابس مبهرجة ذات ألوان أرجوانية متوهجة «زبون»[٣] وكنت أحدق بإعجاب في الموكب الرائع وهو يسير عبر الوادي متجهاً نحو بوابة السديري، وتأكد من أن إبراهيم ابن الجميعة ـ الذي نادراً ما كنت أراه الآن، كان في مكان ما في وسطهم يفوق في بهائه أشدهم تأنقاً في بعض الثياب الزاهية. ولسبب ما لم أستطع أبداً أن أوفق بين هذا الانغماس غير الضار في الملابس الزاهية مع ما سمعته عن رجولة العرب ـ التي، كما يجب أن يُقال صراحة ـ هي نتاج الفقر والفاقة إلى حد كبير. استدرت إلى متركٍ الذي كان بجواري، فظاً قوي البنية، عليه ندوب كندوب الجدري، وفي ثيابٍ السفر البسيطة المتسخة وسألته إن كان سيرتدي على الإطلاق مثل هذه الثياب الزاهية إذا استطاع[٤]. فكان رده المخيب للآمال «بالتأكيد تماماً» أو كما قال بالعربية «بلحيل»[٥]. وفي الحقيقة ليس على المرء إلا أن يرى أثر الاحتكاك بالرفاهية والحضارة على

(١) وعن بلاد سدير، انظر: عبدالعزيز الفيصل. عودة سدير (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٧ وما بعدها.

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر من بلدة شقراء، انظر: العثمان، شقراء، ص ٥ وما بعدها، العمار، شقراء، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وتسمى أيضاً (جوخة) (فيلبي).

(٤) المفروض أن فيلبي لا يستغرب من لبس الملابس الجميلة الزاهية وبخاصة من يقتدر على ذلك، لأن هذا لا يتعارض مع منهج الدين الإسلامي الذي يحث المسلم على أن لا يبخل على نفسه إذا توفر له المال (ابن جريس).

(٥) بلحيل أو بالحيل: كلمة تدل على الموافقة والإيجاب وتعني في هذا السياق أي (نعم). (ابن جريس).

العرب في منطقة الحدود مع سوريا ليدرك أن البساطة في جزيرة العرب ـ وهي الصخرة التي تأسست عليها الحركة الوهابية بثبات ـ وهمٌ لابد أن ينقشع بالتأكيد مع قدوم الرفاهية والتقدم الحديث الذي تأخر طويلاً ولكنه آت لا محالة[١]. فمنذ قرن مضى كان على حركة النضال الوهابية بعد الفورة الأولى لانتصاراتها المندفعة بقوة نحو مناطق بعيدة أن تحسب حسابها مع القوة «الشرقية» العظمى التي تجرأت على تحديها[٢]، وبعد ذلك هوجمت بشراسة حتى أعيدت بالقوة إلى تيه صحرائها، وسُحقت ولكنها لم تمت أبداً، ثم جاء قرن من الضيق والحرمان تحت وطأة ظروف بدائية فأعاد إشعال الشعلة التي بدت أنها قد انطفأت للأبد.

فقد كتب إس إم زويمر[٣] (S. M. Zwemer) أنه حتى وقت قريب ـ أي في عام (١٩١٢) ـ نجد القوة الوهابية القديمة قد تحطمت الآن للأبد، وبدأت نجد تتصل بالعالم من خلال التجارة. لقد كانت هذه القوة الوهابية القديمة ـ في واقع الأمر ـ قد بدأت لتوها في الوقوف على قدميها مرة أخرى؛ فقرية الأرطاوية التي أسسها «الإخوان» كانت في الحقيقة قد أنشئت في تلك السنة نفسها، وبعد ذلك باثني عشر عاماً كان "سلطاناً وهابياً" حاكماً مرة أخرى على مكة. والآن ليس هناك قوة شرقية معنية أو قادرة على التدخل في مصالح الإسلام، مع أن القوة الوهابية بمحض اختيارها تقف وجهاً لوجه مع عدوٍ أشد مكراً وخداعاً من تركيا العظمى في قديم الزمان. وهذه هي نجد لأول مرة تتصل بالعالم ليس من خلال التجارة وحدها، ولكن أيضاً في المجال السياسي. وإذا استطاع عبدالعزيز بن سعود وخلفاؤه من بعده أن يقودوا سفينتهم بأمان وسط صخور السياسة العالمية ومخاطرها الخفية ويصونوا طاقمها قليل الدراية عن الإغراءات التي سوف يتعرضون لها الآن فإن النظام الذي

(١) ما كان يتوقعه فيلبي من رفاهية وازدهار في بلاد ابن سعود مستقبلاً حدث، بل فاق الوصف عندما نشاهد المملكة اليوم أصبحت في مصاف الدول المتطورة الناهضة في المجالات شتى (ابن جريس).

(٢) يقصد بالقوة الشرقية الأتراك في الخليج العربي والأحساء وما حولها (ابن جريس).

(٣) انظر: كتابه الجزيرة العربية – مهد الإسلام، ط٤ (١٩١٢م) ص ١٥١. (فيلبي).

تميزت به المراحل الأولى من الحركة الوهابية الجديدة، إمبراطورية عربية، ومن سيجرأ بدرجة كافية على التنبؤ بالحدود الدقيقة التي قد تصل إليها؟ سوف تملأ المكان الذي كانت إلى وقت قريب تشغله تركيا في صدارة القوى الإسلامية[١].

ولكن، عوداً إلى سردي للأحداث، فقد شهدت صباح السابع عشر من أغسطس تقويض الخيام وانطلاق ابن سعود في ساعة مبكرة في المسير إلى وشيقر[٢] القريبة محطة توقفنا القادمة، ولقد أصر رشيد وإبراهيم الجنيفي على وجوب الحصول على دليل كفء مهما كانت التكاليف، ولكن عندما خرجت من خيمتي مستعداً للانطلاق وجدت الأخير غائباً، ربما كان يتمتع بآخر فنجان من القهوة مع أحد أصدقائه في المدينة، بينما كان الأول يسعى جاهداً لتغطية تقصير واضح، وهو الفشل في العثور على دليل، بنشاط محموم يبذله في تحميل الإبل. وقد امتطيت ظهر البعير دون أن أنبس ببنت شفة، وانطلقت مصحوباً بمترك ومنور، تاركاً كل التفسيرات لما بعد.

من الزاوية الجنوبية الشرقية للواحة انطلقت مبتعداً عن درب وشيقر في اتجاه جنوبي غربي فوق منحدرات جرداء من الحجر الرملي حتى أرض مرتفعة قليلاً على بعد ميل تقريباً، ومنها ألقيت نظرة جيدة على المشهد الكئيب. كانت الهضبة الصحراوية الصخرية الحمراء تمتد لبعض الأميال نحو الغرب بقدر ما تستطيع

---

(١) كان لدى فيلبي حس عال من التطلع وقراءة المستقبل لابن سعود، فهذا هو يتوقع مشرق زاهر لهذا القائد العربي الذي استطاع أن يجمع شتات معظم أجزاء الجزيرة العربية تحت راية واحدة وحكومة واحدة. (ابن جريس).

(٢) وشيقر يطلق عليها قديماً: أشقر، وهي غير شقراء ويقول الشاعر:

فلما نزلنا الوشم حمرا هضابه
أناخ علينا نازل الجوع أحمرا
رحلنا وخلفناه عنا مخيما
مقيماً بدار الهون شقراء واشقرا

فشقراء: هي عاصمة الوشم، واشقرا هي المعروفة الآن بأشيقر. للمزيد انظر: العماري، شقراء، ص ٢٨. نقداً عن: صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار. لمحمد بليهد (ط/١٣٩٢هـ) جـ٥، ص ٢٢٦. (ابن جريس).

العين أن ترى، ونحو الشمال الشرقي واحة شقراء بكاملها، أمام الناظر على خلفية الرمال البرتقالية لصحراء النفود، وبعدها يرتفع الحاجز الأرجواني لأجراف سدير، بينما نحو الشمال الغربي عند مسافة ما كنا نستطيع أن نميز الخيام البيضاء للمخيم المنصوب حديثاً وراء نخيل قرية الفرعة. وعندما نزلنا من المنحدر في الاتجاه الأخير مررنا عبر الصخر الأجرد إلى بقعة مستوية من الطفل الرملي المغطى بالرمل والعشب. وبعدما عبرنا قناتي وادي الغدير وشعيب العشرة وجدنا أنفسنا مرة أخرى على أرض صخرية على بُعد حوالي ميل جنوب مرتفع إسفيني الشكل الذي يفصل شقراء عن القرى الشمالية. وسرعان ما سلكنا الطريق الرئيسي على طول وجه الجرف المنخفض من هذا الإسفين، ومررنا بعد ربع ميل على يسارنا بقصر منعزل في أرض صغيرة مزروعة يحدها على طول الطريق سور بسيط من الأغصان المقطوعة. عند هذه النقطة نجد وادي وشيقر، الذي كان على هيئة إسفين، أمامنا من جميع جوانبه بين جرفين منخفضين يقتربان تدريجياً من الغرب نحو الطرف الشمالي للبطين، وبعده في النفود تبرز للعيان ثلاث هضاب صغيرة دائرية الشكل من الرمل القرنفلي اللون تعرف بصورة جماعية باسم الرمحين. كنا ـ في واقع الأمر ـ عند أحد جانبي الطرف العريض للإسفين، وهناك سهل رملي واسع يقع بيننا وبين الواحتين. وبعد أن مشينا نحو نصف ميل عبر ذلك أتينا على برج طويل مستدق الطرف في ركن سور متهدم والذي كان قبل تهديمه بناءً فيما يبدو على أوامر ابن سعود[1]، يطوّق حقلاً كبيراً من الحنطة خالياً من السكان. وبعد أن قطعنا نصف ميل آخر أو أقل وصلنا إلى البوابة الوحيدة لقرية الفرعة وهي قرية متهدمة إلى حد ما ومتناثرة في غير انتظام ولكنها بهية المنظر. من البوابة يمتد شارع وحيد كأنه مخبأ عبر الكتلة الكثيفة المتراصة من البيوت حتى الطرف البعيد من القرية.

(١) عن المباني الأثرية في بلدة شقراء، انظر العثمان، شقراء، ص ١٣ - ٣٦، العما، شقراء، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

وهناك ينحني عائداً إلى البوابة، ويشكل التفافاً كاملاً تاركاً ما يكفي من فراغ بين مستوى الأرض وسقف النفق لراكب الذلول[١] أن يمر خلاله دون الاضطرار للترجل.

إن سكان القرية ربما يكونون أربعمائة نسمة من فخذ النواصر من بني تميم تحت حكم مساعد بن فايز، الأمير المحلي. وبساتين النخيل التي تحيط بالقرية تمتد في مساحة طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها أقل من نصف ميل. وأشجار النخيل متناثرة بغير انتظام إلى حد ما. ويبلغ عمق الآبار من ست إلى سبع قامات، وبعضها يحتوي على ماء عذب ممتاز، بينما البعض الآخر مالح تماماً.

على بُعد نصف ميل شمال الفرعة تقع واحة وشيقر الأكثر ازدهاراً ورخاءً حيث الماء عذب ووفير، وتشكل بساتين النخيل كتلة دائرية كثيفة قطرها نصف ميل، وفي وسطها تقع القرية، غير المرئية للشخص الآتي من هذا الاتجاه. كان مخيم ابن سعود قد نصب في مساحة مفتوحة تفصل الواحتين، وموقع خيمتي في بستان زرع حديثاً بأشجار الأثل الكثيرة والقريبة من السور الدائري للقرية الشمالية. ويقال إن وشيقر هي أقدم قرية في منطقة الوشم، وتفتخر بقدمها هذا، وتزعم بقاءها بلا انقطاع لمدة أربعمائة عام، تعود إلى تاريخ كانت فيه العاصمة الحالية مجرد مورد ماء صحراوي يُعرف باسم شقراء وشيقر[٢]. وهناك حكاية أقل صدقية في تاريخها، وهي قصة صراعها الطويل وغير الناجح في النهاية ضد الأبطال الأوائل للعقيدة الوهابية. وعدد سكانها في الوقت الحاضر بسيط أقل من ألفين وخمسمائة نسمة، وهم من أصول مختلفة، ومعظمهم ينحدر من فرع الوهابة من بني تميم، الذي ينتمي إليه الأمير المحلي، إبراهيم الخراشي، وأخوه عثمان.

---

(١) الذلول: يقصد به الجمل المستخدم في الركوب (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن شقراء واشيقر انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة) ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ٣٠٩ - ٣١٠، العمار، شقراء، ص ٢٧ - ٤٦. (ابن جريس).

والقرية نفسها التي تقع على الجانب الغربي من الواحة ـ حيث تقل كثافة بساتين النخيل عما في الأجزاء الأخرى ـ ذات شكل غير منتظم وغير مسورة تماماً. أما الواحة من ناحية أخرى فمحاطة بالكامل بسور دائري، ولكنها تغطي منطقة أكبر. والشوارع ملتوية ومنعطفة ولكن البيوت عالية وقوية البناء، في حين تكون الأحياء المكتظة بالسكان مثل مصيدة الأرانب الشائعة عموماً في قرى الوشم أقل ظهوراً هنا[١]. والسوق على هيئة مُعيّن تقريباً لا يختلف عن ذلك الذي في شقراء، على الرغم من أنه أكثر اتساعاً، ويحتوي على ثلاثين دكاناً أو أكثر بقليل. والناس لاسيما الأكثر شباباً منهم يبدون أنهم خالون تماماً من التعصب الأعمى والورع الزائف الذي يميّز معظم القرى النجدية[٢]. ولقد أصابني ذلك بالحيرة والارتباك خلال زيارة تفقدية قمت بها في مساء وصولنا إلى القرية والواحة حيث قوبلت بودٍ وترحابٍ واضح وفضول لم أتعود عليهما أبداً. وآلة التصوير التي كانت معي جذبت قدراً عظيماً من الاهتمام، بينما كان بعض من الأدلاء الذين عينتهم بنفسي قد انضموا إلى عناصر الوشم العسكرية في معسكر شوكي خلال الربيع، وعندما رأوني هناك بدا أنهم يستمتعون استمتاعاً خاصاً بتزويدي بكافة المعلومات التي يقدرون عليها عن قريتهم الأصلية.

يجاور الواحة من الشمال جرفٌ منخفضٌ يشبه مثيله في شقراء، وهناك تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على القرية وما حولها. ويوجد ما لا يقل عن ستة من مجاري السيول[٣] النازلة من الهضبة المنحدرة إلى الغرب والجنوب، وتختلط شواطئها في

(١) للمزيد عن الحياة العمرانية في منطقة الوشم، وبخاصة في شقراء، واشيقر، انظر: أحمد العثمان، شقراء، ص ١٥ وما بعدها، العمار، شقراء ص ٧٩ – ٩١، ١٢٥ – ١٣١. (ابن جريس).

(٢) ان التعصب والنعرات القبلية، على غير أساس شرعي، تكاد تكون عند معظم عشائر الجزيرة العربية، ولا يمكن التخلص منها إلا بالوعي السليم والتقوى والصلاح على منهج قويم. (ابن جريس).

(٣) تجري هذه السيول من الغرب للشرق. وعرة في أقصى الشمال بينما الخليف في أقصى الجنوب وتقع مظلم في الوسط. وبين الأول والأخير يوجد شبارم أو «شريمي». أما عذيج وسديس فهما راقدان من وعرة في الشمال. (فيلبي).

وادي وشيقر، وهي في طريقهم نحو بقعة روضة الرمحين المليئة بالشجيرات والعشب، وتمتد مقابل رمال النفود عند رأس البطين. هنا في الفرعة وبصفة خاصة في وشيقر يتعرض المخزون الوفير من المياه الجوفية للاستنفاد من كثرة الآبار، التي يكون بعضها ذا مقاسات كبيرة. وكان أحد هذه الآبار أضخم بئر رأيته على الإطلاق، فقد كانت حفرة عميقة[١] من سبع قامات حتى مستوى الماء، وفي موسم الجفاف ينزل مستوى الماء بانخفاض شديد ليصل إلى أربع عشرة قامة، كما يقولون، على الرغم من أن إمداد الماء لم ينفد أبداً. والبئر يعلوها هيكل خشبي ثقيل جداً ومجهز بما لا يقل عن ستة عشر دولاباً، ثمانية على كل جانب، يعمل فيه فريق مختلط من الأبقار[٢]، والحمير، والإبل. وكانت الأبقار أقوى ما رأيته في نجد كلها، وعدد الحمير في القرية كان كبيراً جداً، على حسب العدد الذي رأيته يرعى في الوادي. وبساتين النخيل هنا أجمل مما في أي مكان آخر بالوشم، بيد أن أشجار الفواكه التي تنمو تحت النخيل أقل بكثير مما في شقراء. وقد شاهدت أيضاً مناطق واسعة مزروعة بالدخن، من نوع الحبوب الصغيرة كذلك قطاعات شاسعة من القرع.

وجاء عدد من الزوار، الذين تأخروا كثيراً عن الانضمام إلى اجتماع العشائر في شقراء، ليقدموا ولاءهم لسيدهم في وشيقر. ومن بين هؤلاء كان عدة شيوخ كبار من عتيبة، ابن عقيان ومناحي بن هذال وابن عميدي[٣]، والأخيران كانا هما الشخصان

(١) تعرف باسم السديس ويقال إنه يمكن تركيب أربع عجلات (دواليب) إضافية على الهيكل الخشبي في بعض الأحيان وهذه يرفع إجمال الدواليب إلى عشرين. وقد رأيت بئراً أخرى فيها اثنا عشر دولاباً ستة منها في كل جانب (فيلبي).

(٢) الأبقار هنا هي الأكثر استعمالاً في سحب المياه من الآبار (فيلبي) وإلى جانب الأبقار كانت تستخدم الجمال وأحياناً الحمير في رفع المياه من الآبار، وليس ذلك في اشيقر فقط وإنما في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية. للمزيد عن الزراعة وما يتعلق بها في بلاد شقراء وما حولها، انظر: العمار، شقراء، ص ١٣٩ - ١٤٦. (ابن جريس).

(٣) ذكر فيلبي في المتن أنه اسمه ابن عميدي، ثم استدرك في الحاشية فقال: إنه حميدي أو حميض، مع وضع علامة تعجب تدل على عدم تأكده، وأعتقده أنه (حميدي). (فيلبي + ابن جريس).

اللذان ذهبا إلى الملك حسين في ديسمبر الماضي ليطلبا الثأر أو تعويض[١] ضد الإخوان في الغصفط، والشيخ محمد بن الشيخ عبدالله بن عبدالوهاب، رئيس كبار العلماء في نجد. وكان هذا الشاب قد وصل لتوه مع أتباعه من بعثة لجباية الزكاة في منطقة الشعرة، واستقبله ابن سعود بتقدير شديد. ودخل أتباعه في جماعات للخيمة ليسلموا على حاكمهم بالقبلة المعتادة على الجهة اليسرى من أنفه وانسحبوا خارجين فوراً، بينما بقي محمد ليقدم أخبار المنطقة التي جاء منها. وبدا لي أنه شابٌ لا يتعدى عمره الخامسة والعشرين، ولكن ابن سعود قال لي إنه لا يقل أبداً عن أربعين، فملامح وجهه غير الناضجة والخالية من اللحية لا تدل على الشباب مثلما تدل على نقص الذكاء؛ لأنه كان يقال بصورة شائعة أنه ـ مع مولده في عائلة أكبر شيوخ نجد ـ لم يكن لديه فهمٌ كامل بمبادئ الوهابية، وكان يرافقه بشكل منتظم عالمٌ لتوجيهه في المعارف التي يُتوقّع منه يوماً ما أن يكون رئيس العلماء فيها[٢].

وجاء آخر ـ وهو بالنسبة لي مصدر ترحيب ـ ذلك هو الدكتور عبدالله سعيد، الذي لم أره منذ ديسمبر ووصل لتوه من الأحساء ليرافق ابن سعود فيما تبقى من رحلته. وقد لاحظت أنه أصبح يتحدث اللغة الفرنسية أقل طلاقة من ذي قبل، ولكنه كان ودوداً لطيفاً كما كان دائماً، وفيما بقي من وقتي بالجزيرة العربية كنا نتقابل كثيراً. وكان هو حامل الأنباء غير السارة عن هجوم العجمان الأخير على خيام سبيع في حفر العتش (العتك) الذي نتج عنه الاستيلاء على ثلاثمائة بعير، وهذا الهجوم من عمل فخذي صفران وصالح اللذين كان مقر قيادتهما في الشويبدة على الحدود العراقية تحت الحماية البريطانية. وجاءت أيضاً إشاعات عن هجوم آخر من

(١) لقد أنهى ابن سعود هذا النزاع بموجب الترتيبات القبلية المعروفة بدفع دية مقدارها ثماني مئة ريال لكل قتيل (فيلبي).

(٢) محمد المذكور من أسرة آل الشيخ المنتسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب. والتي ما زال بعض رجالها يتولون أعلى المناصب الدينية في الوقت الحالي، كالمفتي العام للبلاد، ووزيري وزارة العدل، ووزارة الدعوة والإرشاد (ابن جريس).

العجمان[١] على منطقة جودة في الأحساء، غير أن ابن سعود، الذي كان عنده في ذلك الوقت آمال كبيرة في تسوية جميع الأمور بتدخل البريطانيين لدى كل من العجمان العنيدة والملك حسين[٢]، لم يأخذ هذه الأمور على محمل الجد. ومع ذلك فقد انتدب واحداً من موظفيه الموثوقين، عبد الرحمن بن معمر، ليطوف بالمناطق التي هوجمت، ويجمع الإحصاءات اللازمة عن الخسائر ويذهب للبصرة ليعد تسوية عن طريق السلطات البريطانية[٣].

لقد اتفق على وجوب استئناف الزحف مبكراً في الصباح التالي (الثامن عشر من أغسطس) ولكن لسبب ما ألغيت الأوامر التي قد صدرت بالليل، وابن سعود ـ الذي لم يكن عنده شيء أفضل من ذلك يفعله ـ قد فاجأني على حين غرة بزيارتي في خيمتي في ساعة مبكرة غير ملائمة. فقد كنت في الحقيقة لا أزال نائماً في فراشي، وخيمتي مبعثرة بالغليونات والأدوات الكريهة الأخرى؛ ولذلك أرسلت له رسالة في الخارج قائلاً: إنني ما دمت مشغولاً في دورة المياه، فلن أستطيع أن أقابله إلا بعد دقائق قليلة. ودون مراسم أو تكلف جلس في خيمة استقبالنا أو طعامنا الكبرى حتى انتهيت من الاستعداد للقائه وخرجت له، ثم أصر على إرسال من يأتي بفطوره الزهيد لنشاركه فيه أنا وعبدالله. كان الفطور يتكون من تمور طازجة، وكعك قاس قليلاً من الدقيق ومعتدل الحلاوة يسمى «كليجة» وقطع من اللبن الجاف تسمى إقط، وحليب النوق[٤]. وقد وصل لتوه بريدٌ من الكويت يحمل أخباراً طيبة، كم هي

(١) قاد هذا الهجوم سلطان بن حثلين وآخر من عائلة مطلق (فيلبي + ابن جريس).

(٢) عن الصراعات العسكرية بين الملك عبدالعزيز آل سعود والشريف حسين في الحجاز والعجمان في شرق الجزيرة العربية، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٢٤ وما بعدها، إي بيسون، ابن سعود، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) موقف بريطانيا وتحالفاتها مع ابن سعود ضد العجمان وغيرهم، انظر: إي بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها.

(٤) كان الملك عبدالعزيز ذا سياسة حكيمة، فهو لا يترك أي سبيل للاستشارة والسماع والمناقشة في بعض الأمور المهمة. ومجيئه إلى فيلبي في خيمته ربما ليستشف ما هي نوايا حكومته بريطانيا حيال ما يحصل في جزيرة العرب، وبخاصة ما يدور حول ابن سعود والشريف حسين، والعجمان. (ابن جريس).

طيبة؟ ليس بمقدرونا إلا التخمين المحدود عن التطورات في الجبهة الغربية، ولكن ليس هناك شيء ذا أهمية محلية. وضيعنا الصباح كله في حديث مشتت غير ذي هدف. بعد ذلك أفشى لي عبدالله بصورة لطيفة أن هناك تفكيراً في السير ليلاً، وخلال العصر لاحظت في المخيم كله تحضيرات واستعدادات نشطة لهذا الغرض. وعند الساعة الخامسة عصراً كان السهل كله يضج بإبل ورجال يصيحون ويُحملّون ويركضون هنا وهناك. وفي وسطهم العلم الملتف منتصباً، وعلى مقربة منه جلس ابن سعود وكبار معاونيه يحتسون آخر فنجان من القهوة ويتفقون على التفاصيل النهائية لعملهم، وفجأة نهض حامل الراية بكلمة من سيده وركب بعيره، وتم تسليمه العلم المرفرف وانطلق في سيره.[1] وتلا ذلك فوضى وارتباك لا يوصف عندما انطلقت جماعة وراء جماعة في إثره، ولم يمض وقت طويل إلا وكان القوم كلهم على الطريق. وكان خط سيرهم يمر شرق الفرعة ولم يبق إلا عدد قليل من المتأخرين، من ضمنهم ناقةٌ انتهت منذ لحظات قليلة من ولادة جمل صغير، وقد ساعدوها على التخلص من المشيمة عن طريق ربطها بحجر كبير. وقد أخذ الجمل الصغير بعيداً، وأعتقد أنه ذُبح، ولم تترك الأم البائسة إلا وقد أنيخت كما هي، ثم وضع عليها الحمل، وقيل: لي إن المشيمة سوف تنزل لاحقاً خلال السير.

والآن ركبت بعيري والتزمت في سيري عاماً وعرة وتركت واحة الفرعة على اليسار أو الشرق، وانطلقت من زاويتها الجنوبية الغربية في اتجاه جنوب غرب حتى منحدر الهضبة. وسلكنا الآن حوضاً مسيلاً مظلماً، بينما سار القوم في شعيب الخلف وهو طريقٌ أطول ولكنه أسهل من سابقه. وقد سقط بعير بالفعل في الطريق من الإعياء والتعب، وذبح للاستفادة من لحمه وجلده. وكان للجيش الزاحف مشهد رائع وهو يتهادى بطيئاً فوق منحدر الهضبة الذي ـ عندما صعدناه ـ ألقينا نظرة

(١) حمل العلم في الحملات العسكرية عادة قديمة عند العرب من قبل الإسلام واستمرت على مر التاريخ الإسلامي. (ابن جريس).

صافية على وشيقر حتى قمتي الرمحين في النفود وجبل آخر منحدر منخفض يسمى لوتال في اتجاه الشمال.

يزداد وهد مظلم في العمق بصورة مستمرة حتى أصبح شقاً أو صدعاً عرضه ثلاثون ياردة وذو عمق كبير، ويبلغ ارتفاع أول جبل واضح من الهضبة نحو ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر وأكثر قليلاً من مائتي قدم فوق الواحة من خلفنا. ومن هذه النقطة ترتفع الهضبة الجرداء بشكل مُطّرد أمامنا على سطحها طبقة طين المرل (الجيري)، ويظهر فيها بشكل غريب بقعٌ ذات لون بنفسجي فوق الحجر الرملي. والدربُ الواضح بصورة تامة يمتد في الوسط بين وهدي مظلم وشبارم إلى أن يلتقي برافد من روافد الوهد الأخير ويُسمى شعيب أوسع، وهو منخفض صخري ضحل عرضه نحو ثلاثون ياردة. وقد كانت المنطقة كلها جافة بصورة مفرطة والنباتات ليس فيها علامة من علامات الحياة، فقد كان الشتاء والربيع الماضيان بلا مطر تماماً. وقد سلكنا شعيب الأوسع حتى صادفنا منخفض على هيئة فوهة بركان واسعة عند قمة الهضبة، نحو (٣٢٠٠) قدم فوق سطح البحر؛ ولأن منبع الشعيب مظلم فإنه يُعرف باسم فرعة المظلم، وهو يُحاط بجبال منخفضة متكسرة تظهر فيها هنا وهناك بقعٌ من الصخر الأسود.

كان الليل قد أرخى سدوله علينا الآن ورفاقي ـ الذين تم تزويدهم بإبل ذلول جديدة غير مدربة ـ قد تأخروا خلفنا كثيراً، في حين كانت الأمتعة قد ذهبت مع القوم. ومهما كان الحال فقد قررت أن أتوقف للمبيت وبعد أن أرسلت ناصراً ـ وهو دليل استأجرناه مؤخراً ـ ليبحث عن الأمتعة، ألقيت عصا الترحال واستسلمت للراحة على ألواح صخرية قاسية في أكمة مخروطية صغيرة تسمى المبدأ، ولم تصل إبل الأمتعة إلا عند التاسعة مساءً، وعندها تناولنا عشاءنا. وطبقاً لما قاله ناصر ـ الذي كان يبدو ذكياً بدرجة كافية ـ تمتد هضبة الوشم عشرين ميلاً نحو الشمال من

هذه النقطة، وتنتهي عند التقاء شقراء مع نفود بتراء التي تمتد رمالها المختلطة في اتجاه الشمال أو الشمال الشرقي نحو الزلفي. البتراء هو الاسم المحلي للطرف الشمالي من نفود القنيفده.

استيقظنا باكراً في الصباح التالي وسرعان ما بدأنا تحركنا نازلين على المنحدر الغربي القصير من الهضبة، وابتعدت الوشم عن أنظارنا، وأصبح يمتد أمامنا بحرٌ لا حدود له من الرمل وجبل فوق جبل من اللون البرتقالي الزاهي في ضوء الفجر. وخلال خمسة دقائق كنا قد وصلنا إلى حافة واد رملي ضيق يسمى فرق، يفصل هضبة الوشم الصخرية عن الرمال. بعدها سرعان ما انطلقنا في دروب القوم التي مروا بها الليلة السابقة. وفي أكثر من ساعة بقليل وصلنا سفح بتراء النفود عند بقعة خضراء من شجيرات الشار تُعرف باسم خل الشار وتشتهر فيما مضى بأنها كانت روضاً شديد الروعة تشبه واحة نخيل، إلى أن جاء السكان الجدد من الإخوان قادمين من فريثان، وقطعوا كل شجرة ذات حجم مناسب ليوفروا لأنفسهم أعمدة وروافد السقوف[١].

٤ـ السر

نقف الآن على عتبة منطقة صغيرة تتمتع باسم رائع هو السر والذي يبدو أنه يعني «الهمس»[٢]، متجهين نحو مجاري سيول سطحية دائمة طول العام والتي تعلو في عدد من الينابيع قرب السطح. هذا هو التفسير المقبول بصورة عامة للاسم، على الرغم من أن ابن سعود نفسه يميل إلى ربطه بكلمة السرة أي السرة أو وسط

(١) كان بناء البيوت وتشييد سقوفها قديماً يعتمد على الأخشاب والجريد المحلي الذي يتم الحصول عليه من الغابات والمناطق الشجرية في كل منطقة. وللمزيد عن أنواع وأشكال النباتات في الجزيرة العربية، انظر: كتاب النبات، لأبي حنيفة الدينوري.

(٢) الهمس: أي المرمر (فيلبي + ابن جريس).

نجد[١]. على كل حال ـ قبل الوصول إلى المنطقة التي تسمى بهذا الاسم ـ اضطررنا إلى التغلب على حزام عريض من رمال النفود يمتد نحو سبعة وعشرين ميلاً بالعرض ولا يقطعه إلا لسانٌ صغيرٌ من السهل الذي يشكل الطرف الشمالي من سهل مروطة المترامي الأطراف الذي يفصل نفود القنيفده عن نفود دلقان[٢]، والأخيرة هذه لم تكن إلا امتداداً جنوبياً لنفود السر، مثلما تكون بتراء ـ التي أوشكنا على دخولها ـ امتداداً شمالي للأولى. وكلا شريطي النفود يلتقيان عند مسافة غير بعيدة نحو الشمال من خط سيرنا، ويتعززان بنفود شقراء ليشكلوا جميعاً حاجزاً صلباً من الرمل بين القصيم والزلفي. على كل حال قال لي ناصر أن لسان السهل الصغير يفصل بين شريطي النفود الاثنين حتى أطرافهما الشمالية التي تنتهي في الصفراء شمال شرق بريدة، وقال أيضاً: إنه عند الطرف الشمالي للسهل توجد قرية صغيرة أو بئر عين ابن فهيد.

هذه المعلومات قد لا تبدو دقيقة[٣]، على الرغم من أنها تشير إلى حقيقة مثيرة للاهتمام هي على وجه التحديد الامتداد غير المنقطع لوادي مستوى في الشمال وسهل مروطة في الجنوب.

يبلغ عرض شريط بتراء على طول خط سيرنا أربعة أميال، وهو دربٌ مألوف تماماً؛ لأننا تركنا توجيهنا للقوم. وسطحه يتكون من جبال ومنخفضات متعاقبة مع ظهور بعض البقع الطينية في قاع بعض المنخفضات، وتفاوت في الارتفاع من خمسين إلى مائة قدم. وشجيرات العرفج اليابسة الكثيرة تلقي ظلالاً رمادية على المنخفضات المتلاطمة كالأمواج، في حين كانت بقعاً من شجيرات الأظير الأخضر

(١) تعريف السر: بأنه سرة الشيء أو وسطه ربما تكون أقرب إلى الواقع، بدلاً من القول إنها سميت بهذا الاسم لتوافر مجاري سيول سطحية بها. (ابن جريس).

(٢) دلقان: وربما سمي (دلغان) (ابن جريس).

(٣) هذه الطريق تستخدمه الآن (١٩٢٨م) السيارات بانتظام، وهكذا تصبح معلومات ناصر صحيحة. (فيلبي).

تضفي تنوعاً على المشهد. وشجيرات الشيح وعشب الثمام ذابلة بسبب الجفاف، ولكن الأغصان الجافة لنبات الأرطي المفيد كانت تنبت أطرافاً خضراء زاهية[١].

في معظم الوقت كان الطريق سهلاً بصورة كافية، بيد أن المنحدر الصاعد للجبال شديد الانحدار أحياناً بدرجة تصعب على الإبل. وقد شرد أحد هذه الإبل من القوم خلال السير ليلاً وراح يتجول تائهاً حزيناً والخُرج[٢] متدلٍّ تحت بطنه، بينما حمولته من تمور الخلاص[٣] الفاخرة من الإحساء قد تركت على جانب الطريق. هذه التمور قد استحوذنا عليها لطعامنا، والجمل عثرنا عليه وتولينا مسؤوليته حتى وصلنا إلى المخيم، وهذا قد أثلج صدر جماعة البحث المكونة من ثلاثة رجال الذين قابلتهم على بُعد ميل تقريباً قبل المخيم يلعنون القدر القاسي[٤] الذي سلبهم نومهم في القيلولة وأجبرهم على الخروج باحثين عن جمل شارد، قد يكون بحلول هذا الوقت في أي مكان من هذه الصحراء الشاسعة. ولقد كانوا شاكرين بعمق لهذه الأنباء الطيبة التي جئت بها وعادوا معي للخيام. كان زعيم الجماعة يركب ذلولاً حرة من شمال الجزيرة العربية، والآخر يركب جملاً من سلالة الدرعية وهو من قبيلة المناصير، والثالث يركب عمانية مثلي[٥]. والمرتفعات المتعاقبة بكثرة في وسط هذا الشريط الرملي ـ طبقاً للبارومتر المعدني الذي أحمله ـ تعلو بنحو (٢٩٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وهي تعرف بالاسم المستقل «جو ابن مطروق» وعندما التفتنا حول كتف إحداها صادفنا فجأة منظراً رائعاً للسهل الضيق القريب أمامنا وأمواج الرمال المتتالية في نفود السر من ورائه.

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن أشجار الشيح، والثمام، والأرطي وغيرها انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

(٢) يقصد بكلمة (الخرج) هنا، أي شداد الجمل الذي كان على ظهره، وكلمة الخرج تطلق أحياناً على شداد الحمير وليس الجمال. (ابن جريس).

(٣) الخلاص: نوع من أنواع التمور الجيد (ابن جريس).

(٤) القدر: يتم بتدبير الله ولهذا لا يجب لعن القدر أو التذمر من حكم الله عز وجل. (ابن جريس).

(٥) الإبل أنواع، فهناك ما هو نجدي أو عماني أو غيرها، ولكل نوع من أنواع الجمال ميزات وأوصاف تختص بها (ابن جريس).

إن عرض الوادي أو السهل الذي يفصل شريطي الرمال عن بعضهما يبلغ أربعة أميال، وتزحف عليه ألسنة الرمل من الجانبين.

على بُعد ميلين تقريباً جنوب مسارنا صار الطريق مسدوداً تقريباً بتل رملي معزول يبلغ طوله ميلين، ويسمى «العفارية»، بينما رمال السر تبرز ناتئة باتجاه الشرق حتى خط سيرنا تقريباً قبل أن تتراجع مرة أخرى في خليج شبه دائري حتى اتجاهها الرئيس نحو الشمال والجنوب. يتكون سطح الأرض بصورة عامة من الطفل الرملي المغطى بطبقة رقيقة متناثرة من الحصى الرملي الخشن، وفي أماكن أخرى بالعشب اليابس. امتد مسارنا نحو الغرب والشمال الغربي بانحراف عبر السهل على درب مألوف تماماً، وصادفنا جماعة صغيرة من البدو في رحلتهم. والمجموعة من خمسة رجال ومعهم اثنا عشر من الإبل التي تحمل بضائعهم وعبيدهم، ومن بينهم امرأتان تركبان في هودجين رائعين يسميان القن. وقد ألقيت عليهم السلام وتلقيت ردهم الودود الحار، ولكنهم توجهوا إلى ناصر بالسؤال وطلب الأخبار، واتضح أنهم من الإخوان من قبيلة عتيبة من قرية ساجر جنوب السر. وكلما اقتربنا من خط النفود الأكبر يزداد السهل رملاً مع بقع من الحصى والحصباء، وأحياناً جبال منخفضة من صخور سوداء مثل الرماد تذكرني بتلك التي رأيتها في السهل نفسه في مسافة أبعد نحو الجنوب. في أحد الأماكن مررنا بمجموعة كبيرة من النصب الحجرية المتهدمة، والتي يبدو أنها بقايا بعض قرية قديمة، وبعد السير مسافة أتينا على مكان من الأرض الصخرية المرتفعة يسمى هجرة، وفي وسطه وجدنا جيش ابن سعود مخيماً ويحاول جاهداً في معظم الوقت أن يعوض ساعات النوم التي ضاعت منه خلال الليل. وجدنا الخيام منصوبة في منخفض رملي ضحل مثلث الشكل، وعلى بُعد حوالي مائتي ياردة من القاعدة للقمة، وهذه القاعدة قد تشكلت من جبل الهجرة الصخري، بارتفاع حوالي خمسين قدماً، والجانبان الآخران من النفود. والمنطقة كلها مغطاة بكثافة بنبات الأرطي حديثة النمو، وعشب الضعة اليابس، بينما الصخر الأسود، الذي يبدو أنه يرتكز على

أساس من الحجر الرملي، من أصل بركاني بالتأكيد وهو يتكون بصورة جزئية من كتل حادة الحواف ذات طبيعة بازلتية، وجزئياً من كتل من إفرازات البراكين بنية اللون، والعروق السوداء في السهل الذي ذكرناه آنفاً تبدو أيضاً أنها من النوع البركاني نفسه.

والإبل التي تحمل أمتعتي لم تصل بعد؛ ولذا ذهبت إلى خيمة عبدالله سعيد لتناول القهوة، والشاي، والفطور، وهناك وجدت محمد بن سليمان[1]، أحد معاوني ابن سعود، ومن بين كل البشر وجدت هناك أيضاً إبراهيم الجميعة، الذي لاشك أنه قد جذبه احتمال وجود دخان.

وهذه أول مرة أجتمع فيها مع الأخير منذ مغادرتي الرياض، وتصرفنا كلٌ تجاه الآخر ببرود حسبما تفرضه هذه الظروف، لكنني أدركت أنني بقدر الإمكان ينبغي أن أقابل عبدالله في خيمتي وليس في خيمته لتفادي المقابلات المحرجة مع الأصدقاء المشتركين، الذين كنت أفضل بصورة قاطعة ألا أتبادل معهم الزيارات.

ومرة أخرى عزم ابن سعود على السير ليلاً، ولم أعتزم أن أحذو حذوه؛ ولذلك انطلقت قبل القوم بوقت عند الرابعة عصراً، بهدف قطع أطول مسافة ممكنة من الطريق قبل الظلام ثم ننصب خيامنا حيثما كنا للمبيت. كان المنحدر الخارجي للنفود شديد الانحدار، وهذا العائق الرملي على امتداد عرضه قد ثبت أنه صعبٌ وثقيلٌ بشكل لم أعهده من قبل، فقد كان طريقاً متعرجاً بصورة دائمة طالعاً فوق جبال منخفضة ونازلاً في أودية وحفر ضحلة، دون أي معلم أرضي مميز، وليس فيه أية تلال مرتفعة من الرمل الصافي الذي يريحنا من رتابة الدهناء. وكانت تتناثر هنا وهناك قنوات ضحلة ذات قيعان طينية، وعلى فترات متكررة كنا نمر على قطعان من الإبل، معظمها ذو لون أسود أو داكن، تخص الإخوان في ساجر وهي ترعى العشب الوفير والجاف الذي يغطي جوانب المرتفعات.

(١) توفي في (١٩١٩م) أو (١٩٢٠م) وخلفه أخوه عبدالله في وظيفة السكرتارية هذه. (فيلبي).

لم نتناول عشاءنا إلا متأخراً، لكنني لاحظت أن كل رجل تقريباً من جماعة المقدمة التي تسبق القوم قد سلك خطاً مباشراً للإبل في مثل هذه المناسبات وحلب النوق وشرب اللبن حتى التخمة. إن العربي ـ مثل بعيره ـ يملك طاقة غير محدودة على التهام الطعام ليعوّض الأيام العجاف عندما يضطر إلى العيش دون طعام[١].

في وسط النفود يوجد نوعٌ من الأرض الفضاء التي تكون للغافل شركاً، ويبدو أنها توفر مجازاً سهلاً لأبعد ما يستطيع المرء أن يرى، ولكن يقال: إنها تنتمي بمتاهة حقيقية من التلال والأكوام الرملية التي يستحيل عبورها، وقد يضل المرء بينها لساعات دون أن يهتدي لطريق يخرج منها. هذه البقعة تعرف باسم «المغداء»، مكان الضياع، والطريق إلى السر، متغاضياً عنها، يتجه إلى منحدر يبدو صعباً على اليمين، وبعده يصبح السير يسيراً بصورة يمكن تحملها مرة أخرى. وكانت زخات قليلة من المطر قد شجعتنا على أن نأمل في هطول مطر غزير، ولكن خاب أملنا، والتف طريقنا الآن على طول سفوح بعض الجبال الرملية[٢] ثم الآن على طول حافة أحد المنخفضات الضحلة. وهناك ممر يؤدي إلى الخط بين منخفضين واسعين نسبياً يعرفان باسم «هويجان»، وكان الذي على يميننا ذا عمق كبير، ولكن لا تظهر فيه أيٌ من خواص حفر الفلج التي تشبه حذوة الحصان في نفود الكبير في الشمال وراء جبل شمر. وقبيل الغروب عبرنا منخفضاً ضحلاً يسمى خبة عواد وفيه قطيع من نوق ابن سعود الحلوب ترعى على مهلها أثناء تقدمها البطيء نحو مكان التخييم التالي. من هذا المنخفض صعدنا المرتفع الشديد الانحدار في جبل عريض وكبير يمتد شمالاً وجنوباً يسمى «أرقب البقرة»، وعلى قمته، التي ترتفع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر طبقاً للبارومتر المعدني قررنا أن نخيم للمبيت، لأن الشمس قد

(١) هذا حكم فيه إجحاف من فيلبي، فليس كل العرب بهذه الصفة التي يذكرها، ثم إن أيام فيلبي كانت أيام جوع وفقر فإذا وجد الإنسان طعاماً فإنه يأكل برغبة شديدة نتيجة الجوع الذي يعاني منه كل الناس. (ابن جريس).

(٢) لهذه الجبال أسماء مثل: أم السويك، وأم عائض وغيرهما. (فيلبي).

غربت بالفعل، وبدأ الظلام يحل علينا بسرعة، ولم يبق من الضوء إلا لحظات قليلة فقط من بريق رائع من الظلال الحمراء الوردية والأرجوانية.

كان القوم في تلك اللحظة على إثرنا تقريباً، وانزوينا جانباً لنشاهدهم وهم يمرون، على رأسهم الكتيبة القوية للحراسة الملكية التي ـ بعد أن قطعت نحو نصف ميل أمامنا ـ توقفت لمدة وجيزة لأداء صلاة المغرب مع فنجان من القهوة قبل أن تستأنف زحفها. وقد سمعنا في اليوم التالي أنها قد ضلت طريقها في الظلام وتورطت في متاهة من التلال الرملية نحو الجنوب قبل أن تضرب أكباد الإبل في سهل السر[1]. يسمى الجبل الذي نصبنا عليه خيامنا منصفة أي علامة منتصف الطريق في نفود السر.

ألحق الدكتور عبدالله ـ ربما لمضايقته نسبياً على ما أتصور ـ بصورة مؤكدة إلى جماعتي، وقد احتفلنا بهذه المناسبة بجدل حار عن المزايا المرتبطة بالسير نهاراً أو ليلاً. وقال: إنه يفضل بقوة الأخير على أساس مستوى البرودة الأكثر، ولكن عنادي في هذه النقطة ربما كان أقل أسى بالنسبة له من شكواه من عادتي في تناول جميع وجباتي مع حاشيتي الصغيرة. لقد كانت بكل تأكيد جماعة تضم أشتاتاً غريبة من البشر، وهذه الحقيقة قد أذهلتني كثيراً على وجه الخصوص في ذلك المساء عندما جلست وحيداً على رابية منخفضة أتأمل الأمواج المتعاقبة من الرمل الكئيب الذي لا حياة فيه ولا نماء، ويلف المكان من كل جانب حول المخيم الصغير والجماعة الصغيرة من المؤمنين الذي يؤدون شعائر صلاة المغرب.

قام الجنيفي بدور الإمام، وأخذ عبدالله مكانه ـ بخجل وارتباك إلى حد ما ـ في الصف خلفه بجوار رشيد، الذي قسّم انتباهه بصورة منصفة بين ربه وإبله،

(١) في قصور ابن سكران. (فيلبي).

وعشائه الذي على النار دون مراقبة أحد[٢]. وقبل العشاء تمتعنا بالإثارة من اصطياد ثعبان، وكانت أفعى سامة صغيرة فرّت من كافة جهودنا لقلتها ولجأت للأمان تحت شجيرة أضرمنا فيها النار كما ينبغي.

وفقنا بمسير أفضل نسبياً في اليوم التالي عما كان عليه حتى هذه النقطة، وعندما انطلقنا في حوالي السادسة صباحاً تغلبنا على النوع نفسه من تعاقب الجبال والمنخفضات. وقد كان واحدٌ من هذه المنخفضات ويسمى جوا ضرمية (درامية) واسعاً ويغطي قاعه الطين، وبعده أتينا على مرتفع صعب وشديد الانحدار يسمى المطقه، وهو بقعة تشتهر بتكرار الحوادث التي تقع عندها. وفي الحقيقة كان واحدٌ من إبل القوم قد سقط عند هذه البقعة وما زال يرقد هناك كما لو كان ميتاً بحمله فوق ظهره إلى أن قام مترك بتحرير الحيوان البائس من الحمل. واكتشف أنه في حالة سيئة، وعند هذه اللحظة فقط ظهر رجلان من القوم مسرعان على طريق من جهة يسارنا والذي كان القوم قد ساروا فيه خطأ، بحثاً عن الجمل المفقود. بعد ذلك فوراً نلنا لمحة خاطفة من الصفراء أي القفر الصخري وراء النفود، وبعدما اجتزنا منخفضاً يسمى خبة السكرانة صعدنا قمة آخر جبل في النفود على ارتفاع (٢٨٨٠) قدماً فوق سطح البحر.

يتسع أمامنا سهل السر طولاً وعرضاً، حيث تسلقت رابية صغيرة ملاصقة للدرب لأسجل تفاصيل هذا المنظر الشاسع. من هذا الموقع المرتفع كان السهل تحتي يبدو منبسطاً، على الرغم من أنه في الحقيقة يرتفع بصورة تدريجية جداً من سفح النفود باتجاه الأفق الغربي، الذي تسده عند أقصى ما يستطيع المرء أن يرى نحو الشمال والجنوب حافة الصفراء، لم أستطع أن أحدد أي معلم أرضي أربط به المشهد الذي أمامي بالمنطقة التي مررت بها للجنوب، خلال ديسمبر الماضي، غير أنه بدا لي أن سهل السر لا يمكن إلا أن يكون امتداداً شمالياً لمرتفعات العارض. يتجه انحدار الأرض نحو الشرق بشكل رئيس مع وجود ميلان تجاه الشمال من

نقطة تقع إلى الجنوب نسبياً من موقعي، حيث تبرز النفود في السهل باتجاه الغرب. وجنوب هذا البروز أو النتوء ـ كما قيل لي ـ يقع سهل أجرد قاحل يسمى سناد، الذي أعتقد أنه طرف شمالي من سهل هضبة القذلة الواقعة شرق منطقة العارض.

إن الجزء الجنوبي من منطقة السر، الذي لم أتمكن من زيارته، يحتوي على قريتين، هما على وجه التحديد قصور ابن سكران في السهل على بُعد أميال قليلة من حافة النفود، وساجر التي تختفي عن الأنظار في طية من طيات الصفراء نحو الشرق من جبل شاهق يسمى فقم ساجر. هذه القرية الأخيرة التي يقال: إنها تضم حوالي أربعين قصراً وأربعمائة نسمة تقريباً، تقع على مسافة عشرة أميال جنوب غرب موقعي الآن، وهي، كما ذكرت آنفاً، موطنٌ للإخوان من قبيلة عتيبة. وقصور ابن سكران أصغر نسبياً من سابقتها وتضم مائتي نسمة، وتتكون من مزارع نخيل صغيرة وقرية فيها ثلاثة قصور متناثرة في وسط حقول الحنطة.

لمسافة أبعد نحو الشمال تقع واحات ضئيلة كثيرة والتي تشكل معاً منطقة السر الحقيقية، وسوف يرد وصفها بالتفصيل فيما يلي على حسب ترتيب زيارتي لها. المعلمُ الوحيد الآخر في هذا المشهد الذي يجدر ذكره هو زوج من التلال الصغيرة المخروطية، أحدهما ذو قمة مسطحة تقريباً مثل الطاولة، ويسمى الوشيعين الذي يغيّر رتابة سطح الأرض المستوية فيما غير ذلك من السهل[١].

وبعد أن أخذت كفايتي من النظر والمشاهدة وبعد أن أعطيت إبل حمل المتاع وقتاً لترعى وتعود إلينا، استأنفت مسيري نازلاً من آخر منحدر من النفود باتجاه شمال غرب.

تقع حافة السهل[٢]، الذي نمر فيه الآن، في منطقة الطفل الرملي الرئيسة مع

(١) من كلامه هذا يدل على عدم خشوعه في الصلاة (ابن جريس).

(٢) هذا الشريط بين رمال النفوذ والسهل ويبلغ عرضه قدمين تقريباً ويسمى الأضعد. (فيلبي).

بقع متناثرة من الحصباء، وأحياناً نتوءات من الجير الطباشيري الأبيض والجبس. وعلى بُعد حوالي ميل عن يسارنا يرتفع قصر وحيد يسمى الحجيلانة؛ ولقد تغير سطح الأرض بصورة تدريجية من الرمل إلى الحصباء. وبعد أن قطعنا هكذا نحو ثلاثة أميال وصلنا إلى نبع ماء يسمى عين القنور الذي يتدفق منه وشلٌ رقيقٌ من الماء الصافي البارد، والذي يقال: إنه ضار وربما يسبب الحمى، وهو يجرى حتى واحة جنيثه على مسافة ميل تقريباً نحو الشمال الغربي. والطبقة الواقعة تحت سطح هذه القناة تكون من نوع كارز (Kariz) وبها مجاري طول الواحدة خمسة أقدام وعرضها قدمان غائرة في التربة المكونة من الحجر الجيري على مسافات فاصلة بينها حتى مستوى الماء (عشرة أقدام تحت السطح عند رأس القناة ويقل تدريجياً كلما اقترب الماء من السطح).

وهناك جزءان من القناة مفتوحان، ويشكلان جدولاً مائياً بعرض قدمان، وبه ضفاف عالية من الطين المُلقى على كلا الجانبين خلال التطهير الدوري للقاع. إن قرية الجنيثة التي يستاء أهلها لسبب ما من اسمها التي أخذته من جَدة علي بن قنور من قبيلة الحطيم وهو الذي اكتشف النبع فيها وأسسها. والسكان يفضلون تسميتها بعين القنور إشارة للنبع الموجود فيها. وتتكون القرية من كتلة صماء من البيوت، التي تشكل تقريباً مربعاً من (١٠٠) خطوة في كل اتجاه، ودون سور دائري مستقل، على الرغم من وجود ما يشبه البوابة على الجهة الغربية.

وهناك بيت واحد أو بيتان واسعان نسبياً بالمقارنة مع غيرهما ومبنيان بناءً حسناً مع أبراج على هيئة غطاء المصباح، وعدد سكانها نحو أربعمائة نسمة وأصلهم من قبيلة الحطيم بصفة رئيسة. والحاكم أو الأمير في ذلك الوقت هو ناصر بن علي المذكور سابقاً. وكان الجدول المائي الذي سرنا بمحاذاته يمتد إلى ما وراء القرية ليسقي بستاناً صغيراً من النخيل في جهتها الشمالية، وبستاناً آخر مزروعاً حديثاً على بُعد ميل إلى الغرب، وبعده يفرغ ما فيه من مياه لري حقل كبير من الحنطة،

التي تتلقى أحياناً مياه إضافية من فيضان مجرى يسمى شعيب العرطاوي الذي ينزل من منحدر الصفراء نحو الشمال الغربي.

والآن سرنا في قاع هذا المجرى صاعدين بجوار قصر متهدم وعدد من الآبار المهجورة على ضفته اليمنى؛ ولأن هذه البقعة كانت تُزرع في الماضي، فقد أصبحت متشبعة كثيراً بالملح الذي كان من الواضح ينجرف مع التيار، وبالتالي يُترك هناك، على الرغم من أنه لا يزال يتناثر مراراً عندما يؤدي هطول المطر الغزير إلى غسل بعض الملح من التربة. وعلى بُعد ميل صعوداً في القناة جئنا إلى قصر عرطاوي الوحيد بهذا الحجم، وهو أيضاً على الضفة اليمنى، وفيه وجدنا ابن سعود وجيشه مخيمين في النهار. هنا يوجد أربعة آبار في جوار القصر مباشرة فيها ماءٌ وفير، على الرغم من رداءة الماء بها، على عمق لا يتجاوز خمسة أو ستة أقدام من سطح الأرض، بينما توجد بئر[١] وحيدةٌ بها ماء ممتاز على العمق نفسه على بُعد نصف ميل تقريباً في جهة الجنوب الغربي. وتكثر في هذه المنطقة طيور الطيهوج الرملية والحمام الصخري.

وقد وجدت ابن سعود يعاني من نوبة مرض الصفراء، الذي كان يُعزيه إلى تناول أكلة مريس (إقط محلول بالماء) التي تناولها خلال سيره ليلاً، في حين بذل كل من عبدالله والجنيفي ـ بعد أن عانا أكثر مما يرغبان من الشمس ـ جهوداً حثيثة لإبعاد نفسيهما عن جماعتي. فقد قاما على كل حال بنصب خيمتيهما على بُعد مسافة ما من خيمتي، ولم أرهما أبداً فيما تبقى من النهار. ورشيد، الذي كان واضحاً أنه مسرور بتخلصه من منافسة الجنيفي قد قال لي: إن الأخير قد سماه كافراً؛ لأنه في أحد المرات أهمل النداء للصلاة حتى ينتهي من نصب خيمتي[٢].

---

(١) تسمى هذه البئر المروى، أي المكان الذي تسحب منه المياه، وكلمة (المروى، أي المكان الذي يسقي منه الناس حيواناتهم وربما مزارعهم (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لا يعتبر بهذا العمل كافراً، ولو أطلق عليه مقصراً أو متهاوناً ربما لكان أحسن. مع أن الإسلام شرع للمسافر أن يجمع ويقصر، بل يقدم ويؤخر الصلاة في حدود الوقت المحدد لصلاتي الظهر والعصر، وكذلك المغرب والعشاء. (ابن جريس).

بحلول الرابعة والنصف عصراً بدأ القوم يتحركون وينشطون مرة أخرى، ولكن مع هذا الوقت كان قد تأكد بصورة ضمنية أنه ليس عليّ التزام بالتوافق مع تحركاتهم. وتبعاً لذلك تركت رشيد ليجمع الأشياء ويذهب مباشرة إلى قرية الطرفية، حيث اقترحت أن نقضي الليل هناك، وأخذت متركاً وناصراً معي، وانطلقنا معاً في جولة بقرى السر. تقع منطقة الجنيثة في أكثر أجزاء السهل انخفاضاً، يفصلها جبل صغير عن الكتلة الرئيسة للقرى، ويشق شعيب عرطاوي هذا الجبل. وعندما صعدنا هذه القناة وجدنا ألسنتها العليا مغطاة بكثافة بشجيرات الطرفاء والأعشاب[1]، وعرضها حوالي ثلاثمائة، ياردة يتحفها من الجانبين جرف منخفضه. وراء هذه النقطة مباشرة التي عندها تشق القناة طريقها عبر الجبل صادفت بقعة صغيرة من النخيل تسمى طيوبي فيها برج واحد للمراقبة، وجاء ساكنه الوحيد ليسلِّم علينا ويسمع أخبار العالم. يبلغ عدد النخيل في هذا البستان قرابة المائة، وينتصب واقفاً في قاع المجرى نفسه دون حماية أخرى من قوة الفيضان إلا من حاجز ـ هزيلاً ـ من أغصان النخيل. كنا الآن جنوب غرب قصر عرطاوي في حين على مسافة غير بعيدة تجاه الجنوب منا، ربما على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال، في منخفض يغذيه سيل من منحدر الصفراء توجد واحة عظيمة هي الأكبر في السر وتسمى فيضة. وتتكون الواحة من ستة من بساتين النخيل الكبرى نسبياً، ورقعة من أشجار الأثل وقرية مسوّرة من أكواخ الطين، يسكنها حوالي أربعمائة نسمة من فخذ النوافلة الفرعي من قبيلة تدعى بني حسين والتي يقال: إن أصلها إما من الأشراف أو من بني تميم. وإلى الشرق من الفيضة يقع قصر واحد في قرية صغيرة تسمى بُغيلي وبها ستة من أشجار النخيل وبعض حقول الحنطة.

(١) لمزيد من المعلومات عن أشجار الطرفاء وغيرها من النباتات في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

إلى شمال من قناة عرطاوي في هذه النقطة يمتد تل بالعرض، ويشكل زوايا قائمة مع التل المذكور آنفاً. ويتكون من مواد جبسية. وبعده سرنا في الدرب العابر من الفيضة إلى القرى الشمالية حتى دخلنا في سهل منبسط واسع أبيض من رواسب الملح الشاسعة فيه، وتتناثر فيه واحات متباعدة إلى أقصى ما يستطيع المرء أن يرى. كانت حبيبات الملح تتلألأ مثل الماس في ضوء الشمس ونحن نشق سطح السهل الناعم غير المأمون، دون ناصر، الذي ناخت ذلوله فجأة به ورفضت التحرك رفضاً تاماً على الرغم من جميع جهوده لإثارتها، ومن ذلك وضع التراب في فمها. وقد اضطر إلى المشي حتى الطريفية التي وصلها مهدوداً ومتعباً، ثم أرسلت جماعة بحث من القرية لإعادة الحيوان خلال الليل. وتتكون الجبال هنا بشكل رئيس من الحجر الجيري مع بقع من الصخر الضارب إلى الحُمرة ومكسو بالملح وقدر كبير من الجبس.

وعندما سرنا شمال غرب وصلنا بعد نحو ميل إلى نهاية أول منطقة من السبخة، ووراءها تقع بقعة رملية بها الكثير من شجيرات العرفج والألندة، وبعدما عبرنا شعيباً رملياً صغيراً يجري من الغرب للشرق (رافد من روافد عرطاوي) فقد مررنا بوسط أشجار متناثرة هزيلة من النخيل تمتد لنحو نصف ميل بالعرض مع مسارنا تسمى (دمثى)، والمباني الوحيدة فيها كانت برج حراسة وقصر وحيد، ولكن لم يكن في أي منهما بشر. والنخيل تخص سكان فيضة. وبعد ذلك بميل أتينا على واحة صغيرة ساحرة تسمى عُيينة ونخيلها الذي يسقيه جدول نشط، يطل على المبنى الوحيد فيها، وهو قصر مربع صغير ذو أبراج مبنية على ربوة من الجبل الذي يفصل هذا الجزء من المنطقة عن منخفض الجنيثة.

على مسافة أقل نسبياً من نصف ميل إلى الشرق من الجبل يوجد نبعان في طور الاحتضار تقريباً، والمياه فيهما شديدة الملوحة، وهما على بُعد نحو مائة ياردة عن بعضيهما. الماء فيهما على مستوى قدمين تحت سطح الأرض، ولا يتدفق إلا ضعيفاً

حيث تعترض سبيله نباتات وطحالب لزجة ضارة. وقناتا كارز (Kariz) الصادرتان من النبعين توجدان في قناة واحدة مفتوحة على مسافة نحو مائة ياردة من النبعين، وهناك صف ضئيل من النخيل يصطف على ضفتي القناة، التي تتسع بعد ذلك بمسافة قصيرة لتصبح مثل البركة أو الخزان. ومن الطرف الشرقي منها يمتد مجرى الماء من خلال ثغرة في الجبل توجد بها كتلة كثيفة من النخيل. وبعد أن يمر من خلال الجبل يلتف المجرى شمالاً ليسقي بستان نخيل الرشية الدائري، على مسافة نصف ميل تقريباً شمال العُيينة ويبلغ قطر بستان الرشية نحو ربع ميل، وبه قصر واحد وبرجان للحراسة، وكلا الرشية والعيينة يخصان سكان الفيضة. ومن عجب أن النخيل يقدر على أن يستمد غذاءه من ماء شديد الملوحة، بالقدر الذي يرسب طبقة كثيفة على طول ضفتي المجرى. وعندما واصلنا سيرنا في اتجاه الشمال الغربي عبرنا جبلاً هو الآخر كان معترضاً ومنخفضاً في حوض الطرفية، ثم استدرنا غرباً لنزور النبع الذي يغذي الواحة الطويلة المتناثرة التي تحمل الاسم نفسه. إن عين الطرفية عبارة عن بركة ماء مغطاة بالطحالب والنباتات المائية الضارة، وغير الجذابة، يبلغ طولها ست ياردات وعرضها ياردتان، ويتكدس على ضفتيها أكوام عالية من الطين المالح الذي تتطهر منه بين الحين والآخر. ومن طرفها الشرقي يصدر مجرى ماء صاف ولكنه بطيء بعمق قدم وعرضه ياردة، ويتدفق بين ضفتين عاليتين بالطين على الجانبين حتى ارتفاع خمسة عشر أو عشرين قدماً. على بُعد ميل تقريباً نحو الغرب تقع قرية آل عامر الصغيرة، وليس فيها إلا شريط هزيل من النخيل على امتداد ربع ميل تقريباً وأربعة أو خمسة بيوت، وربما يكون سكانها ثلاثين نسمة تقريباً.

يبدأ أول نخيل من واحة الطرفية على مسافة ربع ميل تقريباً نحو الشمال الشرقي من النبع، ويمتد على جانبي المجرى كل أربعة أشجار قريبة من بعضها البعض لمسافة ربع ميل تقريباً، وينتهي في بستان كثيف، وإلى الشرق منه وعلى مسافة مئات قليلة من الياردات توجد القرية. تتكون هذه القرية من اثني عشر منزلاً

وهي تشبه القصور، وشيدت متلاصقة لتشكل كتلة صماء من البيوت التي تؤدي جدرانها الخارجية وظيفة الدفاع ضد أي هجوم محتمل[١]. ويبلغ عدد سكانها مائة نسمة من أصول مختلطة، منهم عدد من الزنوج[٢]، الذين كان أحدهم أميراً على القرية، واسمه هويدي، وقد دعانا لمشاركته القهوة في بيته، كما شمل بكرم ضيافته مطايانا التي أجهدها طول السفر، والتي قضت الليل راضية تصطك أضراسها وهي تطحن العلف الذي قدمه لها.

كان مجلس الأمير غرفة مستطيلة بسيطة بجدران طينية غير مزخرفة وخالية من السجاد أو أي رفاهية أخرى، بيد أنها، على كل حال، جيدة التهوية نسبياً بوجود صفوف من الفتحات الصغيرة، المربعة والمثلثة، القريبة من السقف، بينما هناك ثغرة كبيرة غير منتظمة الشكل في الجدار فوق الموقد لكي يخرج منها الدخان الناشئ عن عملية صنع القهوة. وقد انضم إلينا ما يزيد قليلاً عن درزنة من أهل القرية، حيث قضينا المساء مسرورين بدرجة كافية وشربنا فيه دورتين من القهوة وتبخرنا بالبخور قبل أن نعود للخيام[٣].

لقد قالوا لي: إن ينابيع منطقة السر تشتهر ببقائها في الوجود لما يزيد على ثلاثة قرون، وهي من حين لآخر ـ خلال تلك المدة ـ تضيع معالمها ويعاد اكتشافها ثم تضيع مرة أخرى، رغم أن الينابيع الحالية تعود إلى أقصى ما تحتفظ به ذاكرتهم وذاكرة آبائهم. وكانت عين القنور[٤] أول عين يعاد اكتشافها في العصر الحديث، تلاها نبع الطرفية ثم نبع السوينة وهكذا جذبت المنطقة سكانها الحاليين.

---

(١) من يتجول في أنحاء الجزيرة العربية يشاهد القرى القديمة متلاصقة، حتى إنه في بعض الأحيان يصعب على المشاهد تمييز المنازل بعضها من بعض. وهذا التزاحم ناتج عن الخوف والمخاطر التي كان يعيشها الناس آنذاك. (ابن جريس).

(٢) كان الزنوج يتواجدون بكثرة في جزيرة العرب، وعلى هيئة عبيد يجلبون من بعض بلدان أفريقيا كي يعملوا في مهن مختلفة عند الأغنياء وعلية القوم في المجتمع. (ابن جريس).

(٣) القهوة والبخور من العادات العربية المعروفة عند سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٤) عين القنور: نسبة إلى علي بن قنور أحد رجالات قرية الجنيثة في بلاد السر. (ابن جريس).

وفي الطرفية توجد أيضاً آبار[١] عمق الواحدة ثلاث قامات حتى مستوى الماء، في شعيب صغير نحو الشمال الغربي، والذي يُقال أنه الموقع الأصلي للقرية قبل اكتشاف النبع. وتغطي قاع حوض الشعيب أشجار الأثل والطرفاء، وأحياناً يجري فيه جدول ماء صغير. والسكان الأصليون من بني تميم[٢] الذين ـ عندما هاجمهم الغزاة وطردوهم ـ هاجروا إلى منطقة تعرف باسم الأسياح[٣] إلى الشمال من وادي الرمة حيث أسسوا هناك قرية الطرفية التي زرتها في وقت لاحق بعد ذلك.

تحول الحديث بعد ذلك إلى موضوع الدين الذي يستحوذ دائماً على الانتباه، فقد قامت جماعتي طبقاً لما اعتادوا عليه بالجمع بين صلاتي المغرب والعشاء عند المغرب، ومضيّفونا، عندما حان وقت صلاة العشاء عندهم، سألوا جماعتي إن كانوا سينضمون إليهم أو أنهم سيكتفون بالصلاة المقصورة المسموح بها للمسافرين. وبعد بعض المناقشة اتفقوا على أنهم ما داموا قد جمعوا فعلاً صلاتي المغرب والعشاء فليس عليهم التزام بأداء أي منهما، وبالتالي فإن السؤال عن مشروعية قصر الصلاة يصبح أمراً فقهياً بحتاً[٣]. بيد أن هذه النقطة لم تنته دون نقاش قوي، الذي أظهر فيه القرويون البسطاء أشد الحرص والاهتمام. وخلال النهار كانت الرياح شديدة التباين، ودرجة الحرارة فيما بعد الظهيرة قد وصلت إلى مائة وإحدى عشرة درجة فهرنهايت، والسماء في ذلك الوقت ملبدة بالغيوم وتنذر بهبوب الرياح الموسمية المعتادة. وعندما جاء الغروب ساد هدوء تام، وعندما خلدنا للراحة في مكان مبيتنا الذي نستحقه عن جدارة كان الجو صافياً وبارداً بشكل رائع تحت سماء يضيئها القمر.

---

(١) الماء كله مالح وغير صالح للشرب، ولكن يوجد مورد ماء عذب بعد ميل نحو الجنوب الغربي (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن قبائل بني تميم فروعها، مواطنها انظر: حمد الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) الأسياح: هي جمع سيح (فيلبي + ابن جريس).

(٤) الجمع والقصر للمسافر أفضل من أداء كل صلاة في وقتها، وهناك أحاديث صحيحة تنص على ذلك. (ابن جريس).

بعد أن استأنفنا سيرنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي أتينا فوراً على ذيل مجرى مائي ضعيف، سرنا بمحاذاته وسط رقع مزروعة بالدخن وبقايا جذور الحنطة حتى واحة الحوينية الصغيرة. وهناك صف مزدوج من النخيل المتناثر على جانبي القناة قادنا إلى رقعة صغيرة مزدهرة من الزراعة، وفيها، بجوار بستان نخيل صغير تقع أحواض من نبات الفصفصة واليقطين، واللوبيا. وفيها برجان استخدما للحراسة وبقايا قصر متهدم. هذه هي الواحة التي تخص سكان الطرفية. ويلاحظ هشاشة التربة بسبب قشور الملح. وكل ما يوجد هناك يبلغ في مجموعه مائتي نخلة، كما أن ضفتي المجرى مغطاة بالقصب. وبعد نحو ربع ميل خلف منطقة الزراعة هذه يوجد النبع، تحت مستوى الأرض بنحو خمسة أقدام، وحوله أكوام عالية من الطين المشبع بالملح، وسطح مجرى الماء، بطيء الجريان الذي يبلغ عمقه نحو قدمين، وهو مغطى بالقصب ذي الرائحة الكريهة المثيرة للاشمئزاز لمسافة عشرين ياردة.

من هنا اجتزنا أرض السبخة المغطاة بشجيرات الحمض حتى مزرعة صغيرة بائسة فيها مائة نخلة متناثرة تقع على طول جانبي قناة ميتة طولها حوالي أربعمائة ياردة كانت تتدفق[1] ـ إن هي في الحقيقة قد تدفقت على الإطلاق ـ نحو الشمال. هذه هي سمرة، وهي أيضاً من أملاك أهل الطرفية الذين شيدوا برجاً واحداً للحراسة وسط النخيل. وعلى بُعد حوالي ميل باتجاه الغرب رأيت قصراً معزولاً وسط حقل من زراعة الحبوب تُسقى فيما يبدو من نبع آخر.

والآن واصلنا سيرنا فوق شريط من الصحراء يحده جبلٌ منخفضٌ إلى الشرق، وينحدر برفق مرتفعاً إلى الغرب. هنا وهناك تتناثر أدلة على وجود آبار مهجورة، ربما كانت حفراً تجريبية بحثاً عن ينابيع، وعلى يسارنا تمتد قناة مجرى مائي مدفونة على ما يبدو وتنتهي في رقعة صغيرة من النخيل المزروع حديثاً.

(١) يمتاز فيلبي في تدوين معلوماته بالدقة، فنجده يذكر عدد النخيل بنوع من الثقة فلا يقول (حوالي) أو (تقريباً)، وأحياناً أخرى يقول مثل هذه الكلمات إذا كان غير متأكد من المعلومة الصحيحة. (ابن جريس).

وبعد ميلين ونصف ميل تقريباً نحو الشمال من الطرفية أتينا على واحة الروشنية الكبيرة نسبياً، وتتكون من بستان نخيل دائري مساحته حوالي أربعة فدادين، ويُسقى بالساقية من بئر أو نبع، وتتكون أيضاً من شريط من أشجار النخيل طوله نصف ميل على ضفتي جدول ماء يجري من مصدر أو نبع على بُعد نصف ميل نحو الجنوب. في كل جزء من هذين القسمين يوجد زوج من أبراج الحراسة وقصر واحد[1]، وهذه المزرعة تابعة لأهل قرية السوينة التي تبدو الآن أمامنا في اتجاه الشمال الشرقي.

وقد وجهنا مسارنا إلى الينابيع التي تغذي القنوات التي تجعل السوينة من نواح كثيرة أشد القرى ازدهاراً في منطقة السر. ويوجد اثنان منها على بُعد نصف ميل من بعضهما البعض، ولهما قنوات كارز (Kariz) مبنية بصورة عفوية تلتقي عند نقطة تبعد (٣٠٠) أو ٤٠٠) ياردة، حيث يتدفق هناك جدول ماء حتى الواحة من خلال بقعة من الطين المالح الذي يكسو الحجر الجيري.

إن النبع الأكثر ميلاً إلى الشمال من هذين النبعين، والذي فحصته بمفردي، يقع في فوهة عمقها عشرة أقدام وقطرها ستة أقدام، وأجزاؤها العليا مبطّنة بالحجارة. والقناة الصادرة منه في نفق بفتحة رأسية كان عرضها قدمين، والفوهات نفسها كان عرض الواحدة قدمان تكون ناتئة أو بارزة عن مستوى الأرض. بعد حوالي مئات قليلة من الياردات تجري القناة وسط طريق ضيق مزروع بأشجار النخيل، والذي يتسع بعد ذلك حتى يصبح بستاناً أمام القرية نفسها مباشرة. وعلى مسافة ميل ونصف ميل نحو الشمال الغربي تقع واحة صغيرة تسمى الشهامة، وتضم مائة نخلة متناثرة، وبرج حراسة وقصراً في قاع شعيب بالاسم نفسه.

(١) أبراج الحراسة تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية، وتختلف من مكان لآخر في مواد بنائها ومساحتها وطوابقها، وأحياناً تكون على مقربة من المزارع كي تتخذ مكاناً لمراقبة المزارع من اللصوص وبعض الحيوانات المهددة للزرع والحرث. (ابن جريس).

بالإضافة إلى ستة أبراج مربعة ومنخفضة مشيدة للحراسة وسط النخيل وبيت واحد معزول خارج البوابة الوحيدة للقرية في جهتها الشرقية، فإن السوينة أو عين السوينة كما تسمى بصورة عامة تشكل مربعاً مضغوطاً من بيوت الطين طول ضلع الواحد مائة ياردة. والأبراج على المبنى الذي يحتل الزاوية الجنوبية الغربية تشكل منظراً رائعاً بقدر كبير[١]. والسكان الذين يبلغ عددهم نحو (٣٠٠) نسمة من بني[١] تميم، والتي ينتمي إليها الأمير المحلي عبد الكريم بن صبيحي.

ويمتد وراء القرية شريطٌ من النخيل به برج واحد للحراسة في وسطها لمسافة (٢٠٠) ياردة تقريباً على طول مجرى الماء، والذي يأتي إلى نهايته بعد ربع ميل في بقعة تضم خمساً وثلاثين نخلة ومساحة كبيرة مسورة مزروعة بالدخن المزدهر، وأرضاً أخرى مزروعة بالحنطة، التي لا يزال متبقياً فيها جذور النباتات من الحصاد الأخير. خارج هذه البقعة المسورة يوجد مزيد من الأرض الصالحة للزراعة والتي تعتمد على ما يتبقى من ماء الجدول من حين لآخر وبصورة جزئية على فيضان شعيب (الشهامه) الذي يُصرّف ماؤه في منطقة تعرف باسم وثيلان، وفي قاع هذا المجرى كان ظهور ستة من الغزلان كافياً ليغرينا بالتوقف لفترة وجيزة، بيد أن مترك كان شديد التأخر في استعداده وفور تمكنه من ذلك انطلقت طرائده، بعد أن وقفت تحدق فينا لبضع دقائق، تقفز هاربة فوق السهل البني اللون. عند هذه النقطة يجري الشعيب بين تل الصفراء بارتفاع ثلاثين قدماً وجرف من الطفل الرملي الطيني بارتفاع خمسة عشر قدماً، وتتناثر في المكان شظايا متلئلئة من الجبس. ومن هنا ـ على حسب ما قال ناصر ـ كانت قد جمعت كمية من الجبس من زمن غير بعيد وحملت بواسطة أحد المغاربة الذي زار هذه الأصقاع.

---

(١) لمعرفة معلومات تفصيلة عن نوعية الأبنية في نجد خلال العصور الماضية، وطريقة، بنائها وموادها، انظر: النويصر، خصائص التراث العمراني، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن فروع وبطون قبيلة بني تميم، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

يمر الطريق للميلين القادمين عبر الشعيب، الذي تفادينا التواءاته بعبور وإعادة عبور قناته الرملية التي يزداد اتساعها دوماً، حتى أتينا على مجموعة من الآبار[١] غير المبطنة على الضفة اليمنى. وهذه الآبار بعمق ستة أقدام فيها ماء عذب، ومصدر مياه الشرب لقرية وثيلان، التي لا تبعد عنها بأكثر من ربع ميل فقط، والتي سرعان ما وصلناها.

تتكون القرية من قصر رائع ذي أبراج مع قليل من المباني الثانوية على منحدر جبل من الحجر الجيري، وهو الجبل نفسه الذي يقع نحو الشرق من طريقنا من دمثي فصاعداً. والقصر مشيد بالحجر الجيري والطين، وله مظهرٌ عتيقٌ متهدم مع برجين مبنيين بناءً جيداً.

وسكان القرية نحو ثلاثين نسمة تحت حكم شخص يدعى عامر من بني زيد، والذي يرجع أصله إلى شقراء. ويكتمل مشهد القرية بوجود الآبار غير المبطنة ذات ماء يميل للملوحة، وبقعة من أشجار الأثل، وبستان نخيل حديث مسور، ومساحة شاسعة مزروعة بالحنطة في مجرى السيل، على الرغم من أنها تروى بصورة جزئية من الآبار. هذا كله يقع في منخفض دائري واسع ذي تربة طينية محاط بحافة منخفضة لكنها عالية قليلاً عن مستوى الأرض، وفيها يصب السيل مياهه الزائدة، وهناك، بسبب عدم وجود التصريف تغور في الأرض. وفي الأعوام التي يهطل فيها المطر بغزارة تكون مساحة كبيرة خارج الحوض الحقيقي قادرة على إنتاج الحنطة، ولكن نسبة لعدد السكان المحدود فإنهم لا يستطيعون النجاح في التعامل مع هذه المساحة التي لهم الحق الأول في المطالبة بملكيتها؛ ولهذا فإن الغرباء يُسمح لهم بحكم العادة بالدخول فيها. ولقد قيل لي: إنه في عام (١٩١٧م) قد زُرعت قطعة كبيرة من

(١) مروي، مرويات (فيلبي). يقصد بكلمة مروي أو مرويات أي مواقع مياه تستخدم للشرب وسقيا البهائم (ابن جريس).

قبل مزارعين مغامرين من المذنب[١] وهم الذين حصدوا - ما مجموعه - ألفي صاع من الحبوب.

وعندما ضربنا أكباد الإبل سائرين في هذا الحوض، الذي يبلغ عرضه ميلين وينتهي نحو الشرق قريباً من رمال النفود، فقد صعدنا منحدر الصفراء، وبعد ذلك بفترة وجيزة دخلنا في منخفض يسمى الجيري حيث التزمناه. وينحدر هذا المنخفض نحو الشمال الغربي، تحفه مرتفعات جبلية من الحجر الجيري على كلا الجانبين، كما يتكون من تربة ذات مكونات رملية بها قليل من الأعشاب والنباتات الجافة. والآن تتراجع النفود للوراء بحوالي ثلاثة أميال على يميننا، بينما عن يسارنا نحو الغرب توجد صحراء الصفراء التي تبدو كما لو كانت بغير حدود، ربما تبلغ مساحتها حوالي عشرين ميلاً أو أكثر، وتمتد حتى نفود الشقيحة التي من المقدر لنا أن نرى امتدادها الشمالي في عنيزة[٢].

بعد أن واصلنا سيرنا لميلين فوق الحوض الصخري لشعيب أبو عشيرة الذي يدخل في منخفض الجيري من الغرب، فقد التزمنا مساره متجاوزين أحياناً شجيرات الطلح فوق ألواح الصخر التي تلمع فيها مادة تميل للبياض، ربما تكون

---

(١) المذنب: مدينة تقع في طرف القصيم الجنوبي، ويعرف اسم المذنب منذ العهود القديمة، حيث يقول فيه لبيد بن ربيعة العماري:

طرب الفؤاد وليته لم يطرب
وعناه ذكرى خلة لم تصقب
سفهها ولو أني أطيع عواذلي
فيما يشرن به بسفح المذنب

وقد وردت تفصيلات كثيرة عنه في كتب الأدب العربي والمعاجم، وللمزيد انظر: حمد الجاسر. أبو علي الهجري، وأبحاثه في تحديد المواضع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٨هـ)، ص ٣٢٠، محمد ناصر العبودي، بلاد القصيم (الرياض: منشورات دار اليمانة، ١٣٩٩هـ) جـ٦، ص ٢٢٣٧، عبدالرحمن الغنايم. المذنب. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٢٠ وما بعدها. (ابن جريس)

(٢) عنيزة: إحدى مدن القصيم الرئيسة، وللمزيد من التفصيلات عن تاريخها الحضاري، انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة بين الأمس واليوم (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

حبيبات ملح. هذا الشعيب ينتهي في روضة تسمى قصير، محيطها نحو ميل، وتغطيها غابة من أشجار الطرفاء بكثافة. اقتربنا الآن مرة أخرى من حافة النفود، التي لا تبعد عنا إلا بنصف ميل، وعند نهاية قناة أبو عشيرة التي ليس لها مخرج من المنخفض. وقد تبادلنا السلام والتحية مع جماعة من الإخوان متجهين إلى ساجر، وفي وسط بقعة من أشجار الطرفاء صادفنا بئراً[١] وحيدة غير مبطنه فيها ماء عذب على عمق ستة أقدام. في هذه البئر وجدنا هناك رجلاً من الذين يجمعون العشب منهمكاً في استحمامه، بينما وقف حماره المحمل بحمل ثقيل ينتظره بصبر. وقد أدى هذا المنظر إلى عزوفنا عن الشرب.

وينتصب مرتفع جبلي من الرمل كبير الحجم يسمى صلحمية واقفاً عند حافة النفود على بُعد ثلاثة أميال تقريباً من النقطة التي تركنا عندها الروضة. ومن المسافة نفسها نحو الغرب يوجد هناك رجم فوق جبل الصفراء قد دلنا على خط الدرب المباشر من الطرفية إلى المربع، الذي قد انحرفنا عنه رغبة في استكشاف الأماكن والقرى المختلفة التي وصفتها آنفاً. يمتد مسارنا الآن عبر ممر يسمى جدارية بين أجراف من الحجر الجيري في مرتفع جبلي بالاسم نفسه وفوق ممر ضيق تتناثر فيه الصخور حتى روضة جدارية، وهي منخفض دائري عرضه نصف ميل، من الطفل الطيني الرملي الذي تنبت فيه شجيرات الطرفاء. ويمتص هذا المنخفض المياه التي تصب فيه كلما جاءت، وليس له مخرج، وكان من عهد غير بعيد منزلاً مفضلاً، أي مكاناً للتخييم، لعبيد بن لغيمش وهو شيخ فخذ بني عبد الله من قبيلة مطير[٢]، الذي استقر الآن هو وأتباعه ضمن قرية الإخوان الجديدة في فريثان[٣]، وعندما خرجنا من المنخفض أتينا على جبل من أجراف منخفضة شديدة

(١) قليب (فيلبي). وهذا مصطلح صحيح، فالبئر يطلق عليها أيضاً اسم القليب. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبائل مطير، موطنها، فروعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) في الحمادة تقع آبار فروتي على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال منها (فيلبي).

الانحدار ذات لون يميل للحمرة مثل الملح الصخري، وفي جزء ناتئ منه أشار ناصر إلى قبور بعض عابري السبيل الذين لاقوا حتفهم عنفاً على أيدي اللصوص وقطاع الطرق منذ سنوات مضت عندما أصبحت لهذه البقعة شهرة لا تحسد عليها بأنها منطقة خطر[١]. وأمامنا تقع منطقة وعرة جرداء ذات قفر متموج لا حياة فيها. واستفدنا في مسارنا من المنخفضات الضحلة المتكررة حتى أتينا على جبل منخفض ومنه، وأثناء رؤية الخط البرتقالي للنفود على بُعد ميل عن يميننا، ألقينا نظرة على السهل الواسع من الطفل الرملي الذي تتناثر فيه الحصباء. وعلى مسافة بعيدة في وسطه استطعنا أن نرى النخيل المنتشر ورقع أشجار الأثل في قرية المربع وأمامها كان شيطان (عاصفة) الرمل[٢] يرقص في أكمل صورة بقدر ما أتذكر أنني رأيت مثله آخر مرة، وهو عمود حلزوني طويل ملتوٍ من الغبار، مثل الثعبان، يرتفع عالياً في السماء لنحو أربعمائة أو خمسمائة، قدم ثم يجمع ذيله تحته من الأرض قبل أن يختفي عن الأنظار فجأة كما ظهر. ويبدو أن هذه الظاهرة تحدث في الوقت نفسه مع التغير المفاجئ في اتجاه الرياح من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي.

خلال نصف ساعة وصلنا ونصبنا خيامنا لنوم القيلولة بمنتصف النهار في القسم الرئيس من القرية، التي تتكون من قصر واحد كبير له تاريخ عظيم فيما يبدو عليه من مظاهر، بجوار حافة بستان النخيل، ومساحته أربعة أفدنة. والأشجار محملة بالثمار[٣] إضافة إلى رقعة من الدخن الأخضر الغض وراء النخيل ومنطقة كبيرة من الحقول ما زالت فيها بقايا جذور النباتات من حصاد العام الحالي. على بُعد ميل إلى الشمال الشرقي يوجد قصر معزول وسط مزرعة حنطة، وعلى مسافة

(١) كانت القرصنة ومهنة قطع الطرق والاعتداء على الحجاج والمسافرين في الجزيرة العربية من المهن الرئيسة عند كثير من البدو المجرمين في أماكن عديدة. (ابن جريس).

(٢) يسمى شيطان الرمل عجاجاً ولكن العمود الحلزوني يسمى إعصاراً. (فيلبي).

(٣) لم تكن التمور قد نضجت بعد وهي تتدلى في سبائط ضخمة لونها أخضر أو أصفر. (فيلبي).

نصف ميل نحو الشمال والشمال الشرقي توجد رقعة من أشجار الأثل، بينما نحو الجنوب قليلاً من الشرق وعلى بُعد ربع ميل فقط هناك قصر آخر منعزل يحمي بستاناً من النخل الصغير الغض ومزرعة من أشجار الأثل. هذه هي قرية المربع التي تقع جميع أجزائها في الحوض الضحل لشعيب ينزل من الصفراء في الغرب باتجاه النفود، وأمامها ترتفع رابية منخفضة مغطاة بالرمال بارزة فوق السهل. وتحصل المستوطنة على الماء من آبار بعمق ستة أقدام في قاع الشعيب، وهو في معظمه ذو نوعية رديئة، ولكن يوجد مروى على بُعد مائتي ياردة شمال شرق القسم الرئيس الذي تتوفر فيه مياه شرب طيبة.

والسكان لا يمكن أن يزيدوا على أربعين نسمة في مجموعهم، وهم من البواهل[١] وأصلهم من بني تميم. ولقد جاءت معظم العائلات المستقرة هنا من المذنب بيد أن رجلاً عجوزاً أعمى في السبعين من عمره، الذي أتى إلى خيامنا لتجاذب أطراف الحديث معنا، قال: إنه قد جاء من واحة أم البارود الصغيرة في سهل السناد[٢] وقريباً من مخيمنا لاحظت مقبرة صغيرة، من الواضح أنها قديمة ولم تعد مستخدمة؛ لأن المقبرة الحديثة كانت على بُعد مسافة ما حسب ما قال ناصر. وفي المقبرة ستة من القبور مبنية في اتجاه شمال جنوب وعليها حجارة، ربما كانت تذكاراً أو أثراً من العصر الذي سبق تأصيل المذهب الوهابي في هذه الأصقاع[٣].

من الممكن أن تعد قرية المربع آخر نقطة خارجية في منطقة السر باتجاه الشمال، على الرغم من أن البعض ينظر إليها على اعتبار أنها تابعة للمذنب. وإنني

(١) ويقول الكابتن شكسبير إنهم من النواصر ولكن لم أحصل على معلومات عن هذه النقطة. (فيلبي) وللمزيد من التفصيلات عن عشائر البواهل والنواصر الذين ينتمون إلى قبائل بني تميم، انظر: الحقل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) نحو خمسة عشر ميلا جنوب ساجر. (فيلبي).

(٣) طريقة دفن الميت عند المسلمين هي وضع الجثة على الجانب الأيمن والوجه في اتجاه القبلة. (فيلبي). وقد يدفن المسلم خلاف ذلك للجهل الديني عند من يقوم بعملة الدفن. (ابن جريس).

لم أتحقق بصورة دقيقة إلى أيهم تنتمي للأغراض الإدارية، وربما تكون هذه المسألة ليست مهمة كثيراً. إنها لا تستطيع أن تزود خزينة الدولة المركزية إلا بالقليل من ناحية الإيراد، على كل حال يمكن أن يُنظر بثقة وتأكيد إلى الصحراء في شمالها مع شعابها ومجاري سيولها المتجهة نحو الشرق حتى حافة النفود على أنها تشكل جزءاً من منطقة المذنب التي نمر فيها تبعاً لذلك الآن، تاركين الأرض وخرير مياهها خلفنا. وعلى حسب الطريق الذي سلكناه كانت المسافة من الطرفية حتى المربع تسعة عشر ميلاً تقريباً.

٥ـ المذنب[١]

خلال توقفنا منتصف النهار في قرية المربع كانت رياح الصباح التي تهب بصورة ثابتة من الشمال الغربي قد أفسحت المجال فجأة لعواصف ذات إعصار حلزوني تهب تباعاً من الشمال الغربي والجنوب الغربي. كما أن كميات الرمل العظيمة المنجرفة معها تكتسح القفار أمامها، ولكن بحلول الساعة الثالثة والنصف عصراً، عندما استأنفنا سيرنا، أصبحت الرياح تأتي بصورة ثابتة ومعتدلة من الجنوب الغربي والغرب، وتجلب معها سُحباً في الأفق.

وراء الضفة اليسرى أو الشمالية للشعيب يقع المتداد شاسعٌ من الصفراء، صخري ومتموج بشكل رقيق مع وجود النفود البعيدة على طول حدوده الشرقية. وبعد نصف ميل من المخيم عبرنا شعيب أصقل بعرض عشرين ياردة ويجري نازلاً باتجاه الشرق ليغرق في حاجز النفود، وتتكون ضفتيه المنخفضتين من أنقاض الحجر الجيري المفتتة. ودونه يأتي شعيب ريدان أحد روافد أصقل الذي يدفع بحوضه الرملي البالغ عرضه مائة ياردة عبر مسارنا، والصحراء من ورائه تلمع برقائق

(١) للمزيد عن التفصيلات عن مدينة المذنب، انظر: العبودي، بلاد القصيم، جـ٢، ص ٢٢٣٦ - ٢٢٣٨، الغنايم، المذنب، ص ٢٠ وما بعدها. (ابن جريس).

الجبس المتناثرة فوق سطحها المليء بالحصى. وهناك قطيع كبير من إبل الإخوان يرعى على مسافة بعيدة تحت حافة النفود ـ التي تبدو هنا ـ طبقاً لما قاله ناصر، ذات عرض أكبر بكثير مما يوجد على طول الخط الذي سلكناه لعبورها. وفي الطرف الشرقي منها يوجد منخفض دائري واسع ـ قطره نحو ميلين ـ يسمى صيادة الذي كان مسرحاً لمعركة خالدة في الماضي بين فخذي بريح وعلوة من مطير[١]، حيث اصطاد أحد الفخذين الآخر وأوقعه في شركه وأباده من الوجود في «سيدان»[٢] هذه.

بعد السير لمسافة ميل بعد قناة ريدان أتينا على شعيب الزرع الذي يتجه من هنا شرقاً نحو النفود، قادماً من الشمال الغربي، وفي هذا الاتجاه سرنا في مجراه صاعدين خلال رقعة من الأعشاب والنباتات بشكل رئيس الأرطي والأظير الصفراء، وهما نوعان من النبات يشبهان ولكنهما أزهى خضرة من الأظير الموجود في النفود[٣]. وتعرف هذه البقعة باسم روضة الزرع. وقد تم تنظيف جزء عظيم منها من أجل الزراعة، ويدل عليه بقايا جذور النباتات التي تركت بعد الحصاد الأخير. تقسم الأرض إلى أحواض صغيرة مستطيلة، وتعتمد بشكل تام على المطر والسيول، ويزرعها قوم من المذنب. ربما تكون مساحة الأرض المزروعة ثلاثين فداناً في مجموعها، وتنفصل الممتلكات الفردية عن بعضها بخنادق ضحلة عرضها قدم وعمقها بوصتان[٤].

---

(١) لمزيد من الاطلاع عن قبائل مطير، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦. (ابن جريس).

(٢) سيدان (Sedan) مدينة شمال شرق فرنسا دارت فيها معركة حاسمة هزمت فيها فرنسا خلال الحرب الفرنسية الروسية في عام (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م). (ابن جريس).

(٣) يوجد في المذنب العديد من النباتات مثل: النخيل، والأثل، والعوشز، والحنظل (الشري)، الطرفاء، والشنان، والأرطي، والعرفج، والبرسيم البري (الحسك، والصمغاء، والخزامى وغيرها، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٥ – ٧٧. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة وطرقها وأنواع المزروعات في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٨٢ – ١٠٢ (ابن جريس).

كنا الآن على الدرب الرئيس، الذي يتضح اتجاهه بخط علامات من أكوام الحجارة على الجبل الموجود عن يميننا، وبعد أن تجاوزنا الروضة بفترة وجيزة ألقينا أول نظرة لنا على بساتين نخيل المذنب الكثيفة والمتشابكة تحت مرعى النفود، الذي يقع الآن على بُعد ميل تقريباً إلى الشرق. وأمامنا امتد سهل متموج هائل أجرد بصورة غير عادية. ويقطع الدرب شعيب تبينان[١] الذي يتسع كلما نزل في منخفض كبير يسمى المصية[٢] الذي يشغل حوضاً عظيماً في الجانب المتراجع من النفود. هذا المنخفض عبارة عن حمى، أي مرعى إضافي لأهل المذنب، ويقوم على حراسته من المعتدين برجان أو ثلاثة أبراج هزيلة على مسافات فاصلة بينها في وسطه. هنا من حين لآخر تأتي جماعات من المحتطبين ليقطعوا ويحملوا معهم الأعشاب[٣] المتنوعة التي تنمو بغزارة كبيرة[٤].

بعد تبينان يصبح سطح القفر وعراً بصورة مفرطة بوجود ألواح كبرى من الحجر الجيري إما مطمورة في التربة أو متناثرة بصورة مفككة على السطح. ووراء ذلك يصبح السهل مرة أخرى أنعم وأسهل، وتنتشر فيه حبيبات صخرية ورمل مع زوائد من الصخر أحياناً. اتضحت لنا الجهة التي نقصدها بالكامل، ولذلك أرسلت متركاً ومنوراً ليخبرا الأمير بوصولنا، في حين ـ وبرفقتي ناصر كدليل ـ انطلقت مبتعداً عن الدرب المطروق فوق سطح صخري وعر حتى كوم بعيد من الحجارة ومنه ـ ما توقعت ـ ألقيت نظرة رائعة على المذنب وقراها الفرعية. ولكي نصل إلى هناك

(١) تبينان: واد صغير ينتهي في جنوب غرب المصية. وقد ذكره فيلبي باسم (طبيلان) انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٢. (ابن جريس).

(٢) المصية: أو روضة المصية، مع أن فيلبي سماها (النماصية) انظر: الغنايم، المذنب، ص ٦٦، ٧٠. (ابن جريس).

(٣) أشهر هذه الأعشاب النقال، وهو عشب بري منه نوع الفصفصة، والحرض الذي يسمى الشمتري في الشام وأخيراً القحويات (فيلبي).

(٤) عن أعمال الرعي في المذنب وكذلك أنواع النباتات والأشجار، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٥ - ٨٠.) ابن جريس).

كان علينا أن نغلب على وعورة السير الشديد إذ عبرنا شعيب نسر[١] ومجرى آخر أصغر منه، وكلاهما يصرف مياهه عند الفيضان في المنخفض الكبير والذي تقع فيه القرى.

فور أن وصلنا كوم الحجارة غابت الشمس خلف الأفق متوهجة لمدة قصيرة بخيوط اللهب، دون أن تحدث تأثيراً على رمال النفود، التي ظلت محتفظة بلونها البرتقالي الكئيب من النهار. وكان ناصر، بعد أن توضأ بما تبقى من ماء في قارورتي، ولكنه رفض العرض الذي قدمته له بفرد عباءتي له للصلاة فوق السطح الصخري للنتوء الذي نقف عليه على أساس أن منحدر التل كان (بصورة شرعية) طاهراً[٢]. وبينما كان يؤدي صلاته استدرت لأستكشف المشهد أمامي. وذلولنا التي كرهت وعورة وقسوة الأرض فضلت النهوض والتحرك مبتعدون، وهنا قام ناصر بعد أن قطع صلاته، بمطاردتها وإعادتها مرة أخرى، ثم استأنف صلاته التي قطعها. وكنت دائماً أشعر في مثل تلك الأوقات أن هناك شيئاً ما يستحق الإعجاب بشدة في بساطة ويُسر الشعائر الوهابية، التي تنظر أبداً وقبل أي شي آخر إلى الحاجات العملية في الحياة اليومية[٣].

وفي أثناء بقائنا ونحن نقوم بمسح المشهد جاء ثلاثة رجال، من الواضح أنهم ذوو مكانة ومنصب، وفي الحقيقة، كما قال ناصر، كانوا أبناء عمومة أمير المنطقة، وسألونا ما إذا كنا رأينا شيئاً من بعض إبلهم الضالة. وناصر نفسه، الذي ينتمي إلى

(١) شعيب نشر: أشهر أودية منطقة المذنب وأكثرها أهمية، يتكون من روافد عديدة منها شعيب القصيعي شمال السحق ويمر بالدعثة. انظر: الغنايم المذنب، ص ٧٢. وللمزيد عن تضاريس وطبيعة بلاد المذنب، انظر المرجع نفسه.

(٢) طهارة الأرض للمصلي من الميزات التي منحها رب العالمين للرسول ﷺ، وهذا ما نصت عليه كتب السنن. (ابن جريس).

(٣) ليست الشعائر الوهابية، كما يقول فيلبي، وإنما هي شعائر الإسلام التي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية. (ابن جريس).

فرع النواصر[١] من تميم قد زعم وجود علاقة قرابة بعيدة له مع الأمير، الذي ينتمي للفرع نفسه.

إن الطرف الشمالي من منخفض المصية يلامس تقريباً حافة حوض المذنب، الذي ينفصل عن النفود في هذه النقطة بوجود جبل عريض من الحجر الرملي يسمى الخرطم[٢] الذي كان جانبه الخارجي أو الغربي يمتد تقريباً في جهة الشمال تماماً حتى يقترب فيما يبدو من وادي الرمة.

وتتراجع النفود نفسها إلى الخلف في اتجاه شمال شرق وقبل مسافة طويلة تنخفض بوضوح حتى يصبح عرضها نحو ثلاثة أو أربعة أميال فقط؛ لأنه يحدها من الشرق سهل المستوى. ويقال: إن شريطاً ضيقاً من السهل يفصل الجانب الغربي من النفود عن جبل الخرطم الذي يزداد في عرضه كلما امتد نحو الشمال وفي أجزاء منه تنتشر خيوط من الرمل التي تكسوه.

تشكل منطقة المذنب حوضاً شاسعاً، يحده من الشرق جبل الخرطم وهو محاط بالكامل من الجهات الأخرى بحافة صحراء الصفراء. وعلى أحد روابيها وقفنا حيث رأينا قنوات السيول الكثيرة النازلة منها التي لا تجد مخرجاً من المنخفض، فتهب الحياة لأرضه الطينية الخصبة. من بين هذه القنوات شعيب نصر المذكور آنفاً، يتدفق من الجنوب للشمال متخللاً مزارع القفيفة وعلى مسافة أبعد جهة الغرب يوجد شعيب القفيفة نفسه الذي ينزل من الصفراء متخللاً مزارع الثُليما والهيشة ونبعة يروي بساتين القفيفه وجزءاً من منطقة المذنب، وشعيب العليا القادم من الغرب متخللاً قرية بالاسم نفسه يمتد في شعيب المذنب الذي يمد الجزء الرئيس

(١) يقول ناصر إنه يمكن أن تجد النواصر في الفرعة (بالوشم) والمذنب، والغاط، والروضة، والحوطة، والتويم (فيلبي). للمزيد عن فروع النواصر من بني تميم انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) جبل الخرطم: يشرف على مدينة المذنب القديمة من الشرق، ويصل ارتفاعه النسبي عما حوله تقريباً (٤٥ - ٥٠) متراً، ويجاوره من الشمال جبل الكيس الذي يقاربه في الارتفاع، ويشرف على روضة السفالة. (الن جريس).

من واحة المذنب نفسها بالماء بعد أن يروى، في ألسنتها العليا جهة الغرب، مناطق القاع والعقيله. وكل هذه القنوات تنتهي مقابل سفح جبل الخرطم وتصرف فائض مائها في منطقة شاسعة من مزارع الحنطة الطيبة نحو الشمال تعرف باسم السُفالة[١].

ولأن الليل قد أرخى سدوله فقد نزلنا من النقطة المرتفعة التي منحتنا أفضلية في الرؤية إلى الحوض، وعند حافته قطعنا بالعرض قاع شعيب قفيفة الذي تكسوه شجيرات الرمث حتى وصلنا إلى قصر الأمير المشيد تشييداً حسناً والبهيّ المنظر عند حافة مزارع قفيفة. وقد نُصبت خيامنا بجوار القصر قرب بئر مبطن ببناء رائع الذي لا يزال في طور الإنشاء، ولاحظنا أن الفوهة قد نزلت بالفعل إلى عمق عدة قامات قبل الوصول إلى مستوى الماء. إن ماء منطقة المذنب تفسده بصورة عامة الأملاح المعدنية وطعمه يميل للملوحة قليلاً، ويوجد على عمق يتراوح بين ثماني إلى عشر قامات، ولكن مروى المنطقة كلها يتمثل في بئر واحدة بعمق سبع قامات تقع في القفيفة ويعرف باسمها، وهي في بستان النخيل وراء بيت الأمير[٢].

بحلول هذا الوقت كان التعب قد تمكن منا بعد سيرنا الطويل، فالمسافة الحقيقية من المربع إلى القفيفة نحو ستة أميال، ولم أشعر بالأسف عندما سمعت أن مضيفنا، فهد ابن عبد الكريم العقيلي[٣] قد عزم على الاستفادة من الليلة في

(١) لمزيد من الإيضاح عن تضاريس بلاد المذنب،انظر: الغنايم، المذنب، ص ٥٨ - ٧٤. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن مصادر المياه في بلاد المذنب، وعن ارتفاع الملوحة في مياه آبارها، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٥٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) فهد بن عبدالكريم العقيلي كان أميراً للمذنب من قبل آل رشيد في حائل منذ عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وقد عاصر الصراعات مع ابن سعود وابن رشيد حتى عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، حيث عفا الملك عبد العزيز آل سعود عنه، وأعاده أميراً على المذنب، وفي عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) تم تعيينه أميراً لمنطقة عسير في أبها ولكن لم يوفق حيث ظهر ضده تمرد من أهالي عسير بقيادة الأمير/حسن بن عائض فحاصروه في أبها لعدة أيام ثم اعتقلوه. للمزيد، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٥، ثيثان بن جريس. أبها حاضرة عسير، ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز، ص ٢١ وما بعدها، للمؤلف نفسه: دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس)

متابعة بن سعود، الذي غادر إلى عنيزة الرابعة عصراً بعد أداء صلاة العصر وتناول العشاء. وعلى كل حال كان الأمير قد أعلن عن نيته في دعوتنا على العشاء قبل أن يغادر، ولم يمض وقت طويل إلا وقد استدعينا إلى القصر. واستقبلنا عند المدخل فهد نفسه، الذي أوصلنا إلى مجلس القهوة عنده، وهو صالة ذات أبعاد رحبة، بطول أربعين قدماً وعرض ثمانية عشر قدماً وارتفاع حوالي خمسة وعشرين قدماً. وجدرانها مبنية بناءً صلباً ومكسية بالطين. كما أنها مفروشة بصورة فخمة بالسجاد والوسائد. ووضع الموقد في الطرف البعيد عن الباب، والجدار الطويل في الجانب الداخلي تتخلله ثلاث فتحات كبيرة فوق مستوى الأرض بأقدام قليلة، وكل فتحة منها مزودة بباب خشبي عليه زخارف أنيقة[١]. هنا أخذنا قسطاً من الراحة لبعض الوقت ونحن نحتسي عدة دورات من القهوة ونتبادل التحايا مع مضيفنا، الذي عبّر مراراً عن سعادته باستقبال واحد، بصفته ضيفاً، يُجلّه ابن سعود نفسه إجلالاً كثيراً. وفجأة اختفى، لا لشيء إلا ليظهر مرة أخرى ودعوات المضيف الكريم على شفيته، قائلاً: «اقلطوا» أي تعالوا ادخلوا للأكل، وسرنا في أثره صاعدين إلى غرفة في الطابق العلوي، حيث انشغلنا مباشرة بطعام سخي من لحم الضأن المطبوخ والأرز، وقد كان مملحاً بطريقة جيدة[٢]. ولقد قدّرنا هذا الطعام حق قدره؛ لأنه أول وجبة حقيقية نتناولها ذلك اليوم، وبعدها نزلنا مرة أخرى إلى المجلس الكبير، حيث وجدنا صحبة عظيمة قد اجتمعت لشرب القهوة معنا. وفي المجلس لاحظت عدداً كبيراً من الإخوان الذين يتميزون عن رفاقهم بفترتهم البيضاء. ومرت القهوة عليها عدة مرات، وأصر العبد على أن آخذ منه الفنجان الرابع، على الرغم من أنني ظننت أنه من الأدب أن أقول له «كفى» بعد الثالث.

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن الأنماط المعمارية في بلاد المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٧، ١٠٤ - ١١٣. (ابن جريس).

(٢) عن الأطعمة والأشربة وأدواتها في المذنب، انظر: الغنايم، ص ١١٦ وما بعدها (ابن جريس)

ارتفعت حرارة الغرفة بسرعة لا تطاق، وغرقت في حمام من العرق. في مثل هذه الظروف من الصعب المحافظة على تدفق الحديث العادي، ولذلك سرعان ما استفدت من معرفتي أن مضيفي يعتزم السفر في الليل فقدمت أعذاري وانسحبت من الجلسة.

كان فهد بلا شك رجلاً مميزاً فوق العادة، رجلاً صاحب آراء مستنيرة وتقدمية، عنده معلومات عن العالم الخارجي. إنه يتذكر زيارة النقيب شكسبير له تماماً[١]، بيد أنه لا يذكر شيئاً على الإطلاق عن ليتشمان، الذي من المؤكد قد زار المذنب قبل الحرب خلال رحلته في الذهاب إلى الرياض. ومن المصادفة أن فهداً، مثل الكثيرين جداً من الرجال البارزين في نجد، يرتبط مع ابن سعود بعلاقة مصاهرة، فأمه هي خالة إحدى السيدات الكثيرات اللائي تمتعن بشرف زواج سريع الزوال من الحاكم الوهابي. وعند عودتي إلى خيمتي أرسلت رشيداً بعباءة طيبة هدية للأمير، بيد أنه أعادها مع رسالة تقول: إنه سيكون على النقيض من قواعد الكرم وحسن الضيافة بالنسبة له أن يقبل هدية من ضيف[٢]. وأتصور أنه يعني ما يقوله حقاً، فشهرته ببذخ الضيافة تطبق الآفاق. وقد قرن رسالته برغبته في أن أعود إليه مرة أخرى لتناول القهوة معه قبل رحيله، ولكن لأنني كنت قد نويت عمل الواجب قبل الذهاب للفراش، فقد اعتذرت متحججاً بالتعب، وقبل منتصف الليل بقليل رأيته وأتباعه يمتطون إبلهم ويرحلون بنور البدر التام. في هذه الليلة كنت سعيداً جداً بفراشي؛

(١) الرحالة شكسبير الإنجليزي قام برحلات عديدة في جزيرة العرب كان آخرها الرحلة السادسة التي عبر فيها وسط الجزيرة في عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، انطلق من شقراء عبر نفود السر، ودون مشاهداته عن قرى ومزارع عديدة في تلك المنطقة. وربما كان البارون نولدي الأوربي الوحيد الذي سبق شكسبير إلى هذه المواقع في معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود عام (١٣٣٣هـ/١٨٧٦م). وقد قتل شكسبير أثناء هذه الرحلة في معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود عام (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، للمزيد انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤٠ نقلاً عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية (المنشور في جامعة الرياض - الملك سعود حالياً - عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) جـ٢، ص ٧٢. (ابن جريس)

(٢) عدم أخذ هدية من الضيف عادة عربية قديمة. (ابن جريس).

لأنني أدرك تماماً أنه قبل الفجر يجب عليّ أن أستيقظ مرة أخرى لألحق بركب البيرق[١] الذي لم أره منذ إقامتنا في مخيم قصر عرطاوي.

في الحقيقة امتنع رشيد ـ بود شديد ـ عن إيقاظي حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء، وزاد تأخر انطلاقنا أكثر بقدوم الفطور غير المتوقع، وكان وجبة خفيفة ولكنها مرغوبة بشدة من الأرز المتبل بالبصل والتمور الطازجة[٢].

والقصر ـ الذي رأيته الآن لأول مرة في وضح النهار ـ بدا أنه بناءٌ مربع عظيم، وانتظام الزوايا وتناسقها لا ينقطع إلا بنتوءات من الأبراج في الزوايا الأربع. وهناك ثلاثة أبراج منها مزودة في أعلاها بشرفات أو فتحات تطلق منها النار، بينما تجد الرابعة في الركن الجنوبي الشرقي من المبنى منخفضة بكثير عن الثلاث الأخرى وذات مظهر متكسر غريب مثل المآذن في البلد الوهابي الحقيقي. ويبدو أنها تؤدي غرضاً مزدوجاً كبرج للحراسة ومئذنة لمسجد الأمير الخاص. ويوجد قصران آخران في منطقة القفيفة[٣]، التي تضم حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر فداناً من النخيل مقسمة إلى أربعة أو خمسة بساتين مسورة، بها أعداد وفيرة من أشجار الفواكه النامية تحت النخيل.

ولقد عزمت على القيام بفحص مفصل لجميع القرى التي تشكل منطقة المذنب، وبحلول الساعة السادسة صباحاً، بعدما وزعت العطايا على خدم الأمير الكريم المضياف، كنت قد انطلقت فيما ثبت أنه رحلة طويلة ومرهقة في ذلك النهار. فلمسافة ميل تقريباً سرنا في قناة شعيب القفيفة صاعدين فوق سطح مليء

(١) يقصد بالبيرق هنا، أي الحملة العسكرية التي على رأس الملك عبدالعزيز آل سعود. (ابن جريس).

(٢) عن الأطعمة والأشربة في المذنب، انظر: الغنايم، ص ١١٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يوجد في المذنب العديد من القصور والبيوت الأثرية القديمة، وأقدمها قصر باهلة نسبة إلى البواهل الذين سكنوا المذنب في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) للمزيد عن الآثار القديمة في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤١ - ٤٩. (ابن جريس).

بالحصى، نعبر ونعيد عبور الشعيب مرات كثيرة، ثم انحرفنا عنه نحو برج حراسة عند طرف واحة نبعة التي تتكون من قصور قليلة متناثرة وأربعة أو خمسة بساتين نخيل في أو على طول قاع الشعيب. ووراءها توجد قرية صغيرة شبه خربة من تسعة أو عشرة بيوت في ثغرة بين بستانين مع قليل من الأكواخ الطينية المربعة المتناثرة هنا وهناك. هذه المزرعة تخص أهل المذنب، والتي يصل عدد مستأجريها ـ المقيمين في العقار ـ إلى مئة شخص تقريباً. ومثل أي مكان آخر في هذه المنطقة فإن الإبل تستخدم بصورة حصرية تقريباً لسحب المياه من الآبار. والبساتين منتشرة بغير نظام، بيد أن الفجوات بينها مملوءة عن آخرها ببقع كبيرة من زراعة نبات الفصفصة والدخن. ولقد رأيت أيضاً بعض أحواض من اليقطين والخضروات الأخرى[1]. يبلغ طول الواحة حوالي نصف ميل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتقع على بعد ميل تقريباً جنوب غرب القفيفة. بعدها دخلنا مرة أخرى في قناة شعيب القفيفة، التي يبلغ عرض قاعها الرملي ذي الصخر المتناثر نحو مائة ياردة بين أجراف من الحجر الجيري بارتفاع عشرين قدماً. وعلى بعد ميل إلى الجنوب تقريباً في وهد فرعي صغير تقع قرية الهيشة[2] الصغيرة وتمتد لمسافة ربع ميل في اتجاه شرق غرب مع نخيلها واثنين أو ثلاثة قصور صغيرة.

وبعدما واصلنا السير صاعدين في شعيب قفيفة نحو الجنوب الغربي أتينا على واحة شاسعة وكثيفة نسبياً تسمى الثليما تقع على الضفة اليمنى في ارتداد من الصفراء. وهي محاطة بالكامل تقريباً بسور طيني مبني من عدة مداميك من الحجر الجيري على طول حافة الشعيب. وكانت أشجار النخيل في الجزء الشرقي من المزارع تبدو ضعيفة وهزيلة بسبب ـ كما قيل لي ـ فقر أصحابها، الذين كانوا غير قادرين على تأجير عمال خلال موسم التسميد، ولا يستطيعون شراء إبل

(١) عن الأحوال الزراعية في المذنب، انظر: الغنايم، ص ٨٢ - ٩٤. (ابن جريس).

(٢) الهيشة: إحدى قرى المذنب، كما يوجد هناك واد يسمى: الهييشة، انظر: الغنايم، ص ٧٤. (ابن جريس).

لاستخدامها في الري. أما الجزء الغربي فهو أشد نضارة وازدهاراً، وبه مساحة كبيرة من الدخن، والفصفصة، وبقايا جذور الحنطة. في الزاوية الجنوبية الغربية توجد مقبرة وقرية مهجورة من عشرة بيوت، التي لا يمكن أن يتجاوز إجمالي سكانها خمسين شخصاً.

عندما استدرنا إلى الشمال الغربي عبر حافة الصفراء الملتوية أتينا بعد ميل إلى واحة القاع التي يعيش سكانها وعددهم خمسون شخصاً في سبعة أو ثمانية بيوت متناثرة على طول حافة بقعة من النخيل يبلغ متوسط عرضها مئة ياردة، وبها نخل مثقل بأحماله من الثمار، ولكنه ليس كثيفاً في عدده. وتضاف إليه أشجار الأثل والدخن والفصفصة التي لا بد منها. وتكتمل القرية ببستان واحد معزول به بيت واحد تجاه شعيب عُليا الذي سرعان ما وصلناه عند الطرف الغربي من واحة العليا. وللقناة هنا قاعٌ صخريٌ مع بئر صغيرة محفورة فيه حتى عمق قامتين، وبجواره يوجد زوج من خيام البدو[١]. تمتد الواحة نازلة في القناة حتى التقائها مع شعيب المذنب، وعلى طولة يتناثر النخيل لمسافة قصيرة. بالإضافة إلى المساكن المنتشرة وسط النخيل توجد قريتان صغيرتان، كل منهما تضم عشرة بيوت، والأبعد منهما تقع مباشرة بعد التقاء المجريين على الضفة اليمنى. والسكان المقيمون فيها لا يتعدون مئة شخص.

هناك أرض فضاء مفتوحة مساحتها (٢٠٠) ياردة تقريباً، تفصل العليا عن الواحة التالية، العقيلة[٢] وهي مزرعة ناضرة مزدهرة كثيرة الأشجار ومعتنى بها تماماً، وهي ملك شخصي للأمير. وتمتد جنوب غرب وشمال شرق، لحوالي نصف

(١) البدو الرحل يعتمدون على خيام الشعر التي يصنعونها ويسكنون فيها، وذلك لعدم استقرارهم في مكان واحد. (ابن جريس).

(٢) ذكر فيلبي اسم (العقيلة)، ولم نجد في المراجع التي تكلمت عن المذنب مكان بهذا الاسم، وإنما وجدنا موقع آخر يسمى عِليّقة، أو (عين عِليّقة. انظر الغنايم، ص ٨٤. (ابن جريس).

ميل من حافة شعيب المذنب. والبستان الأوسط فيها، مساحته نحو عشرين فداناً، ومحاط بسور منخفض فيه شرفات أو فتحات لإطلاق النار، ويحتوي على ثلاثة قصور مشيدة تشييداً جيداً، وكان أحدها في حافة البستان، ويمثل نموذجاً رائعاً للبيت الحصن مثلما رأيته في أي مكان آخر. وقد أخذ نصيبه من الصيانة الجيدة مثل مقر إقامة الأمير في قفيفة، ولكنه أكبر منه كثيراً وذو شكل غير منتظم مع ما به من أفاريز وشرفات أو فتحات لإطلاق النار حول السور الشاهق، الذي كانت جوانبه مثقوبة بفتحات تهوية مثلثة الشكل كالعادة تضفي عليه أثراً زخرفياً. وإلى الغرب من البستان الرئيس توجد ثلاثة بساتين معزولة أصغر منه فوق الأرض المرتفعة تجاه مجمج بينما توجد تجاه عُليا على طول الشعيب قليل من البساتين الصغيرة.[١] وعمال الأمير المقيمون في هذه الأرض[٢] ـ ومنهم بعض أسرته ـ يبلغ عددهم مائة شخص مماثل وفي مزرعة القفيفة العدد نفسه تقريباً.

والآن كنا نضرب في الصفراء نحو قرية مجمج الصغيرة التي لا تبعد ربع ميل فقط إلى الشمال، وتقع عند الطرف الغربي لأكبر البستانين اللذين يكونان الواحة. هاذان البستانان من قناة يجري فيها الماء من بئر في البستان الأصغر على بعد حوالي أربعمائة ياردة من القرية، التي تضم سكاناً من نحو مئة شخص يعيشون في عشرين بيتاً، أحدهم أشد رحابة من الأخريات في الطرف الغربي. وفي أثناء وقوفنا بجوار القناة، وكنت منهمكاً في تغيير شريط فيلم الكاميرا، أتى إلينا واحد من الإخوان معه بندقية معلقة في كتفه والفترة البيضاء التي تدل على إيمانه الظاهري على رأسه. وكان ناصر، الذي يقلق دائماً من الاتهام الطائش بالردة، على الرغم من أنه شخصياً وعلى انفراد يكون أكثر من ودود معي، قد اقترح على عجل وجوب مغادرتنا المكان. بيد أنني كنت غير قادر على الحركة بصورة مؤقتة بسبب العمل

(١) للاطلاع عن الآثار القديمة في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٨ - ٤١، ١٦٢ - ١٨٠. (ابن جريس).

(٢) الأجراء يعرفون باسم عمال ويضاف إليهم العبيد العاملون في البيوت (فيلبي).

الذي كنت أجريه في تلك اللحظة، وبعد أن تبادل زائرنا التحية معنا وقف بجوارنا دونما أي محاولة أخرى لتبادل الحديث. فبادره ناصر بالسؤال: «من أين جئت أنت؟» لكي يصرف انتباهه عني. فرد عليه قائلاً: «من قريّب» دون أن يبدي رغبة واضحة في مواصلة الحديث. فحاول معه ناصر مرة أخرى «هل أنت من الإخوان؟» فأجاب «إن شاء الله» ودون أي كلمة أخرى أدار ظهره لنا وولى مبتعداً. بعد ذلك بلحظات قليلة وعندما كنا مروراً بالقرية هرع إلينا رجل هرم خارجاً منها، وبعد تبادل السلام مرحباً توجه إليّ بالسؤال صائحاً: «وأنت من تكون وماذا تكتب؟»[١].

واصلنا سيرنا في سهل قاحل من الطفل الرملي وبعد أن عبرنا القاع الصخري لشعيب المذنب أتينا على بقعة من النخيل صغيرة ومعزولة، ومن الواضح أنها بلا اسم، وبالقرب منها في العراء رأينا رجلاً نائماً ومنبطحاً على بطنه والشمس القائظة تضرب في عموده الفقري شبه العاري. وقد صاح فيه مترك ليوقظه فنهض الرجل واستأنف سيره.

من مجمع مشينا تجاه الشرق نحو ميل ودخلنا في الواحة الرئيسة بالمذنب وهي قرية الشروقية[٢] التي تتكون من ثلاثين كوخاً طينياً بسيطاً وسكانها مئتان من المستأجرين يعملون في المزارع الجنوبية من النخيل الممتدة لنحو ميل باتجاه الجنوب من القرية نحو القفيفة. وعلى يسارنا توجد بساتين النخيل الكثيفة والشاسعة، التي تسمى رفاع (الرفيعه) تمتد نحو الشمال حتى حافة شعيب المذنب ونحو الشرق حتى تقترب بنصف ميل من جبل الخرطم. وكانت الفجوة بين هاتين البقعتين بعرض ربع

(١) من طبيعة البدو وأهل القرى الريفية قديماً الاستغراب من أي وافد إلى بلادهم، وهم لا يعرفونه من قبل. وبالتالي فقد يتم مسألته، وأحياناً قد يؤذى من قبل السكان المحليين الذين لا يرحبون بالغرباء في بلادهم. (ابن جريس).

(٢) قرية الشورقية: إحدى قرى المذنب، مع أن فيلبي ذكرها باسم (الشروقية). انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٦، ١٧٦، ١٨٤. (ابن جريس).

ميل تقريباً مليئة عن آخرها بمزرعة حنطة تروى رياً حسناً، وعبرها مشينا لنطوف حول الحافة الشرقية لبساتين رفاع (رفيعة)، التي بها عددٌ من القصور المتفرقة. وفي المسافة بيننا وبين جبل الخرطم كانت توجد بساتين قليلة منعزلة، وكان ذيل شعيب قفيفة الذي يروي كلاً من الشروقية والرفاع (رفيعة)، يبدو أنه يمتد عبرها ليتحد مع الطرف الشرقي من شعيب المذنب.

تقع الحافة الشمالية من منطقة (الرفيعة) على طول الضفة اليمنى لهذا الشريان الرئيس، ومقابله توجد مدينة زاهية رائعة محجوبة عن النظر جزئياً بقليل من بقع النخيل المتفرقة. وقبل المدينة مباشرة ينقسم الشعيب إلى عدة فروع، أحدها الذي ذكرناه سابقاً ويمتد بين المدينة ورفاع (رفيعة)، وآخر يمتد للشمال من السابق ليروي بساتين شاسعة على هذا الجانب، بينما يمر الفرع الأوسط أو الرئيس على طول الجهة الشرقية من المدينة، التي تنحني للداخل في شبه دائرة واسعة ورائعة المنظر. من هذا الجانب دخلنا، ومشينا خلال متاهة من الشوارع حتى خرجنا منها مرة أخرى على الجهة البعيدة بجوار البوابة الغربية.

إن مدينة المذنب ليست مسورة، وفي حالة من الخراب على نطاق واسع، فقد بدا نصف البيوت متهدماً وغير مأهول[1]. وهي مستطيلة الشكل تقريباً طولها نصف ميل من الشمال للجنوب وعرضها ربما مائتان أو ثلاثمائة ياردة، وكانت الجهة الغربية مثل الشرقية منحنية للداخل في شبه دائرة تواجه الفرع الشمالي من الشعيب. وإلى الشمال والغرب من المدينة تقع عددٌ من البساتين المتفرقة ومساحة كبيرة من زراعة الحنطة، وفي خارج البوابة الغربية يبدأ شريط كثيف من النخيل متوسط عرضه مئتا ياردة يمتد نحو الغرب تماماً لحوالي ميل حتى حافة الصفراء المطوقة له.

(١) للاطلاع على معلومات أكثر من تاريخ المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٧ وما بعدها (ابن جريس).

إن وجود هذه البوابة على الجهة الغربية قد يوضح أن القرية كانت في يوم الأيام محصورة داخل سور، ربما لم يكن هذا السور أكثر من الجدار المستمر للبيوت الخارجية، وحتى في الجهة الشرقية، حيث يمكن استحداث مدخل عند أي من الاثنتي عشرة نقطة فيه. والدخول المناسب من خلال ثغرة خاصة ربما كانت مُزينة في السابق ببوابة عندما كان خط البيوت في هذا الجانب أقل تقطعاً بسبب الصدوع المهدمة مثلما هو الحال الآن. والمئذنة النحيلة المستدقة الطرف هي المعلم البارز في المشهد على هذا الجانب. وفي الجهة الشمالية يوجد ما يشبه البوابة التي تؤدي إلى الخارج حتى البساتين في تلك الجهة وحتى منخفض سفالة، والبيوت هنا تمثل حاجزاً أو سوراً مستمراً مثلما يوجد حول البوابة الغربية مباشرة. وهاتان البوابتان ما هما إلا هياكل مبنية من الطين المسقوف بعوارض تحمل غطاءً من جريد النخل المضفور معاً بالطين. ولا يوجد سوق في المدينة، ويقال إنه لا يوجد حتى محل واحد، بينما عدد السكان لا يمكن أن يتجاوز المائتي نسمة[١]. ومن الواضح أن المذنب كانت في الماضي أكثر ازدهاراً ورخاءً مما هي عليه الآن، بيد أنني لم أستطع أن أكتشف أي مبرر محدد لاضمحلالها وخرابها أكثر من حقيقة أن سكانها قد استسلموا «للضعف»، وهي كلمة معبرة لا تدل فقط على فقر مادي ولكن أيضاً على حالة من الانحطاط الروحي والمعنوي الذي يسلب من ضحاياه العزيمة أو الرغبة في التغلب على الصعاب في موقفهم. وعلى الرغم من ذلك وكما يتضح مما رأيته في المنطقة ككل فإنه يبدو لي أنها تتمتع بمزايا كامنة، التي قد تستطيع طاقة رجال مثل الأمير، تحت درع السلام الذي جلبه ابن سعود لبلاده بإحياء الدعوة الوهابية، أن تحولها إلى قيمة مفيدة[٢].

(١) للاطلاع على النواحي الاقتصادية في المذنب قديماً، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) من يزر المذنب يجد ما كان فيلبي يتنبأ لها قد حصل وزيادة حيث أصبحت هذه المدينة وغيرها من مدن المملكة تعيش نهضة حضارية جيدة شملت جميع جوانب الحياة. (ابن جريس).

وكان شريط ضيق من الصفراء على بُعد نصف ميل شمال المدينة يفصلنا عن واد أو منخفض السفالة، الذي سرعان ما دخلناه عندما استفأنفنا سيرنا باتجاه الشمال الغربي على طول الطريق السريع للقصيم. كانت الآبار والقصور المتناثرة تنتشر في الوادي على مسافات فاصلة بينها، ولقد تجاوزنا منطقة كبيرة فيها أرض ذات بقايا من جذور النباتات بعد الحصاد. والآبار بعمق ستة قامات، ولكنها في هذا الوقت، بين موسمي الحصاد، قد جُردّت من آلاتها وتجهيزاتها ووقفت عارية في المنظر مثل هياكل عظمية هزيلة.

وتتكون التربة من الطفل الرملي قليل الخصوبة مع انحدار نحو الشمال، وتنتهي على بُعد نحو ميل ونصف شمال المذنب عند منحدر رقيق صاعد من الصفراء، ومنه يعود فيضان الشعاب المتحدة من المنطقة ليغوص في التربة. وبعدما مشينا مسافة أطول أتينا على بقعة من شجر الأثل في منخفض يغذيه شعيب الروضة[1] الذي يوجد على طول ضفافه مزيد من مزارع الحنطة التي تروى من الآبار مع قصور متفرقة هنا وهناك، منفردة أو في مجموعات. هذه القناة، التي تصل حتى سفح جبل الخرطم، تنحرف نحو الشمال نازلة في سهل واسع، وبعد أن تتلقى المياه المنصرفة من شعيب عتيق الضيق يمر بجوار وهد ضيق وعميق يشق حاجز الصفراء إلى حوض أملاح شاسع يمتد لبعض الأميال على طول حافة جبل الخرطم بعرض يتفاوت من ميل إلى نصف ميل.

من الشمال للجنوب يمتد حوض الملح هذا، مملحة العوشزية كما يسمى على واحة العوشزية التي كان نخيلها البعيد قد ظهر لنا الآن، لا يقل عن ستة أو سبعة أميال. وطرفها الشمالي يتلقي فائض الفيضان من فرع من وادي الرمة الكبير

(١) يوجد في المذنب أكثرمن مكان باسم (الروضة) مثل: روضة الحسو، شعيب روضة الزرع، روضة الشقيقة، روضة المربع، روضة مهنا، كما أن هناك مكاناً آخر يسمى الرويضية. انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٧، ٣٥، ٥٦، ٦٧، ٧٢، ١٨٠، ١٩١، ٢٠٢. (ابن جريس).

نفسه[١]، وهكذا تشكل المملحة حوضاً مكتفياً اكتفاءً ذاتياً، ويبدو بمظهر بحيرة واسعة مجمدة يغطيها الثلج. وفي الحقيقة تتكون من كتلة صلبة من الملح الأبيض النقي، القاسي والثابت، الذي يغطي لعمق قدم أو ثمانية عشر بوصة تربة تحتية من الطين الأسود، التي تصبح بعد الفيضانات غير مأمونة لأولئك الذين يمشون عليها في غير حذر وحيطة. ويقولون إنه في المواسم الطيبة تغطي مياه الفيضانات المندفعة في هذا المنخفض من كل حدب وصوب طبقة الملح حتى عمق عدة أقدام إلى أن يتم امتصاصها بصورة تدريجية.

ومن حوض الملح هذا يأخذ أهل السر، والمذنب، والعوشزية مؤونتهم؛ لأن لهم حقاً مكتسباً بالتقادم في الاستحواذ على أقصى قدر يرضيهم دون ثمن. إن النظام التركي في احتكار الملح لم ينفذ إلى صحاري نجد، والملح العربي ـ على الرغم من وفرته ـ ليس من المرجح على الإطلاق أن ينافس في أسواق العالم، حيث إن تكلفة نقله إلى الساحل قد تكون باهظة. ومن المحتمل أن كمية الملح الموجودة في المملحة لا تنضب أو لا تنفد، بيد أن الجزء الشمالي على وجه الخصوص من الحوض مقابل العوشزية هو الذي يؤخذ منه كثيراً؛ لأنه يحتوي على أفضل أنواع الملح. حتى ولو كان الأمر كذلك، ومهما بدا لي من جودة في هذا الملح إضافة لجاذبية بياضه فإنه يُنظر إليه محلياً على أنه أقل جودة من ملح الشقة بالقرب من قرعة في منطقة بريدة ولأقصى ما استطعت أن ألاحظه كانت أسواق عنيزة وبريدة تعرض فقط الملح الذي يميل إلى اللون القرنفلي البني المنتج من حوض الشقة وهو مستودع يشبه البحيرة جاهز للبيع لزبائنها.

وبعدما واصلنا سيرنا أتينا على شعيب أبو خشبة عند نقطة توجد فيها بقعة صغيرة من النخيل لا يرعاها أحد، ومن هناك كانت القناة المكسوة بشجيرات

(١) يسمى هذا الفرع (الزغيبية). (فيلبي + ابن جريس).

الطرفاء بكثافة، تجري شمالاً نحو ميل حتى تدخل في الطرف الجنوبي من المملحة. وعلى طول الضفة البعيدة تمتد منطقة من حقول الحنطة محمية بجدار ساتر بارتفاع أربعة أقدام ضد اختراق الفيضان لها. هذه الحقول يقوم على رعايتها أهل المذنب، بينما المنطقة المجاورة للقناة توفر مرعى طيباً للإبل. وبعدها وصلنا إلى شعيب مويح وهو رافد آخر من روافد حوض الملح، وقناة طولها ثلاثون ياردة تجري فوق قاع من الصخور الجيرية. وبعد أن تقدمنا في سيرنا عبر الصفراء الملتوية بنصف ميل أتينا على قناة شعيب آخر، الذي كانت ضفته الجنوبية أو اليمنى تعتبر محلياً الحد الفاصل بين منطقة المذنب ومنطقة القصيم. هذا هو شعيب ضبّة الذي يجري نازلاً عبر الصفراء نحو الشرق باتجاه المملحة، ويبلغ عرضه نصف ميل. وقد استمد اسمه من بقعة النخيل المتفرقة التي لا يرعاها أحد في قاعة على بُعد ميلين عكس اتجاه التيار. ولا يوجد قصر أو أي بيوت أخرى، في حين على بُعد ربع ميل فقط من طريقنا، وعكس اتجاه التيار أيضاً، توجد مجموعة من أربعة قصور تسمى قصور فضل وسط بقعة من زراعة الحنطة هجرها أصحابها ولا يأتون إليها إلا في مواسم الزراعة والحصاد. وعلى يميننا كانت حافة حوض الملح تقترب إلى ما يقل عن نصف ميل من الطريق الرئيس. لقد قطعنا حوالي ثمانية أميال منذ أن غادرنا المذنب، ولا بد أن نحتفظ بالباقي من رحلة ذلك اليوم للفصل القادم، وفيه سوف أصف من جديد تجاربي في منطقة القصيم الشهيرة[1].

(١) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ وحضارة بلاد القصيم، انظر: محمد ناصر العبودي، بلاد القصيم (عدة مجلدات)، كما انظر قائمة المصادر والمراجع التي أثبتناها في نهاية الكتاب ويوجد بها العديد من أسماء الكتب التي تتحدث عن تاريخ بعض مدن القصيم مثل: بريدة، وعنيزة، والمذنب، والزلفي، والرس، والربيعية وغيرها. (ابن جريس).